روايات مصرية للجيب

4

حرب الجواسيس

د. نبيل فاروق

Looloo

الجاسوس الغامض

حرب الجواسيس

لم يخل العالم ، ولن يخلو أبدًا ، من حرب ما ..

فى مكان ما ..

وزمن ما ..

حروب يتقاتل فيها جنود ، وتتصادم فيها أسلحة ومعدات ، وتسيل معها الدماء أنهارًا .

ولكن هناك ، فى كل وقت ، وكل مكان ، حربًا أخرى ، قد تبدأ وتنتهى ، دون أن يشعر بها سوى أصحابها فحسب ..

حرب تحتاج إلى القوة ، والبراعة ، والذكاء ، و ... والمعرفة ..

فهى حرب تدور فى عالم سرى وخاص للغاية ..

حرب العقول ..

والجواسيس ..

كل الجواسيس

د. نبيل فاروق

صفحات من تاريخ الجاسوسية

اليابانى

(قصة واقعية)

اليابانى ..

(قصة واقعية)

انهارت (بريطانيا) العظمى أو كادت ، فى تلك الشهور الأولى العصيبة ، من الحرب العالمية الثانية ، وعلى الرغم من تاريخ إمبراطوريتها الاستعمارية العريقة ، التى وصفها أبناؤها يومًا بأنها لا تغيب عنها الشمس أبدًا ؛ نظرًا لاتساع رقعتها ، وامتدادها من الشرق إلى الغرب ، راود ساستها شعور بأنهم يعيشون لحظات النهاية ، والمشهد الأخير لتاريخهم ، الذى ربما تغرب عنه الشمس إلى أبد الآبدين ، فلا تقوم له قائمة مرة أخرى قط ..

ولأن ساسة (بريطانيا) قد اشتهروا ، بأنهم أخبث أهل الأرض ، بعد اليهود بالطبع ، فقد رأوا أن الوسيلة الوحيدة ، التى يمكن أن تعدّل مسار الحرب ، وتقلبها على رءوس مشعليها ، من نازيّى الرايخ الثالث ، هى أن تلقى الولايات المتحدة الأمريكية بثقلها كله فى المعركة ..

وبأية وسيلة كانت ..

ولقد تم عرض الأمر على الأمريكيين بالفعل ، مشفوعًا بكل المبرِّرات ، ذات الأسباب المنطقية الظاهرية ، القادرة على إقناعهم بأن هذا فى صالح (أمريكا) نفسها ، وأنه أفضل وسيلة لتسجيل اسمها فى صفحات تاريخ ما بعد الحرب ..

ولكن الأمريكيين رفضوا الفكرة ، بل واستنكروها تمامًا ، وقد بدا لساستهم أنها مجرّد محاولة خبيثة من البريطانيين ، لإقحامهم فى معركة قاسية ، لا ناقة لهم فيها ولا جمل ، خاصة وأن قارتهم بعيدة كل البعد عن منطقة الصراع الأوروبية ، والآسيوية ، والإفريقية أيضًا ، فى نفس الوقت الذى بدأ فيه اقتصادها ينتعش ، بعد أزمة الثلاثينات الاقتصادية الطاحنة ، وعادت تروس مصانعها تدور ؛ لإنتاج أطنان السلاح ، الذى تحتاج إليه (بريطانيا) ودول المواجهة الأخرى ..

ومع تواصل المحاولات البريطانية ، وزيادة العناد والإصرار الأمريكى ، رأى رئيس الوزراء الإنجليزى الجديد (وينستون تشرشل) ، أنه ما من سبيل سلمى أو منطقى ، لدفع الأمريكيين إلى حلبة الصراع ، وأنه لا مناص من اللجوء إلى خدعة قوية .. وعنيفة أيضًا ..

ومن خلال خطة محكمة ، دبرها خبراء المخابرات البريطانية ، بالاشتراك مع رئيس الوزراء نفسه ، وباستخدام شفرة لاسلكية أمريكية قديمة ، داخل مجال أجهزة الاعتراض اليابانية ، تم إقناع إمبراطورية الشمس فى (اليابان) ، بأن الولايات المتحدة الأمريكية تستعد لشنّ الحرب عليها بالفعل ..

بل وأن أسطولها يستعد لشن تلك الحرب المزعومة ، فى قاعدة (بيرل هاربور) الشهيرة ..

ولقد ابتلع اليابانيون الطعم ، وامتلأت نفوسهم بالقلق ، واجتمع قادتهم لدراسة الموقف ، وطرح كل الاحتمالات على مائدة البحث ؛ لتحديد الخطوة التالية الواجب اتخاذها ؛ لتفادى ذلك الهجوم الأمريكى الوهمى ..

ولأن اليابانيين ليسوا بالسذاجة ، التى تؤهلهم لتصديق أمر رهيب كهذا ، واتخاذ الإجراءات ضده ، دون التيقن منه ، فقد كانت أولى خطواتهم هى التحقق من صحة ما لديهم من معلومات ..

وتم إسناد مهمة القيام بهذه الخطوة إلى الرجل المناسب ، الذى لم يكن سوى مدير المخابرات اليابانية ، والمسئول الأول عن كل النشاطات المعادية لإمبراطورية (اليابان) العظمى ، فى كل أنحاء العالم ..

وإحقاقًا للحق ، لابد أن نذكر هنا ، أنه ، وعلى الرغم من هزيمة (اليابان) فيما بعد ، فقد كانت تمتلك واحدًا من أفضل وأقوى أجهزة المخابرات ، التى عرفها تاريخ الحرب العالمية الثانية ، وأكثرها تنظيمًا وانتشارًا ، وإن حالت الهزيمة دون أن يحظى بالتقدير والتسجيل المناسبين ، فى تاريخ الجاسوسية والمخابرات ..

وعندما تلقَّى مدير المخابرات اليابانية الأمر ، كان عليه أن يستفيد من هذا النظام الدقيق ، إلى أقصى حدٍّ ممكن ، لذا فقد عاد إلى ملفاته السرية ، واستخرج منها قائمة دقيقة للغاية ، بأسماء كل عملاء المخابرات اليابانية ، فى الولايات المتحدة الأمريكية ، من أقصاها إلى أقصاها ..

وبسرعة ، وقع اختياره على (تاناكا) ..

و(تاناكا) هذا هو الاسم الكودى لعميل نصف يابانى (لم يُفصح عن اسمه الحقيقى قط) ، وُلدَ على الأراضى الأمريكية ، من أب أمريكى وأم يابانية ، ربطتهما قصة حب قوية ، فى أوائل القرن العشرين ، وارتبطا بزواج مدنى ، أسفر عن إنجاب ابن واحد ، حمل ملامح والده الأمريكى ، وبشرة أمه اليابانية ، وحمل فى السجلات الرسمية اسمًا أمريكيًا صرفًا ، اشترك مع ملامحه فى إخفاء نصفه اليابانى تمامًا ..

وعلى الرغم من تفوق الأب الأمريكى ، فى منح ابنه الملامح والاسم والجنسية ، فقد حققت الأم اليابانية انتصارًا ساحقًا بحق ، عندما زرعت فى أعماق ابنها وكيانه كل التقاليد اليابانية القديمة ، وجعلته ، على الرغم من هويته الأمريكية الرسمية ، يابانى النزعة ، قلبًا وقالبًا ، بل وكيانًا ومشاعر أيضًا ..

ولقد اتضح هـذا بشدة، عندما اندلعت الحرب العالميـة الثانية، التى شاركت فيها (اليابان)، فـى عام ١٩٣٩م، إلى جوار (ألمانيا) و(إيطاليا) فى نفس الوقت الذى تعاطفت فيه الولايات المتحدة الأمريكية رسميًا، مع (بريطانيا) العظمـى، ودول (أوروبا)، التى سقطت تباعًا، فى قبضة النازية ..

فمـع اندلاع الحرب، وتحديد موقـف (أمريكا) رسـميًا، استغل (تاناكا) علاقاته باليابانيين المهاجرين، وحدَّد موعدًا مع أحد مسئولى المخابرات اليابانية، وفى أثناء لقائهمـا السـرى، وضع كل خدماته، بل وحياته نفسها، تحت علم (اليابان) ..

وبمنتهى الصدق والإخلاص ..

ولسبب ما، وربما هو حسن الحظ فحسـب، انتقل (تاناكـا) للعمل فى جزيرة (أوهايو)، إحـدى جزر (هاواى)، شمال القاعدة البحرية الأمريكية، فى (بيرل هاربور) ..

ولقد ظَل (تاناكا) يتابع الموقف فى القاعدة البحرية، دون أوامر مباشرة من رؤسائه اليابانيين، ويسجّل كل ملاحظاته عنها، فى سجل خاص به، مرتكبًا بهذا مخـالفتين خطيرتين، فى عالم الجاسوسية، وقواعد علم المخابرات ..

فالجاسـوس، أى جاسـوس، لا ينبغى له أن يبدأ عمله،

إلا إذا تلقَّى أمرًا واضحًا بهذا؛ إذ إن تحركه فى وقت غير مناسب، أو غير مدروس، قد يؤدّى إلـى كشف أمـره، وسقوطه قبل أن يحقِّق أية فائدة تُذكر ..

ثم إنه لا ينبغى أن يـدوِّن مـا يحصل عليـه من معلومـات قط؛ حتى لا يصبح هذا دليلاً ماديًا على تورُّطه، إذا ما سقط فى قبضة خصومه ..

ولكن من الواضح أن (تاناكا) لـم يكن قـد تلقَّى تدريبًا كافيًا بعد، ربما لضيق الوقت، قبل أن يعلم أنه صـار يعمل لحساب اليابانيين ..

وفى منتصف عـام ١٩٤١م، تلقَّـى (تاناكـا) ذلك الأمر المباشر، ببدء عمله رسميًا، والذى تضمَّن سـؤالاً واحدًا، يلخص مهمته القادمة كلها ..

تُرى هل يستعد الأمريكيون بالفعل، لشنْ غـارة هجوميـة على (اليابان) ؟!

ولأن (تاناكـا) لـم يتلق تدريبًا كافيًـا، فقد أسـاء فهـم الموقـف كلـه، (وهذا خطأ المخـابرات اليابانيـة بالدرجـة الأولى)، وتصورَ أن مهمته هى تـأكيد الجواب بالإيجاب، وليس تحرّى الأمر فحسب ..

لذا ، فقد بدأ (تاناكا) مهمته ، بأكبر خطأ يمكن أن يقع فيه أى جاسوس ، فى أى جهاز مخابرات فى العالم ..

بالتعسُّف لحساب نتيجة بعينها ..

فالواقع أن (بيرل هاربور) كانت ، فى تلك الأيام ، صورة مخزية للإهمال والاستهتار واللامبالاة ، من الجانب الأمريكى ، إذ إن الشعور ، الذى كان يسود الجميع ، فى تلك الآونة ، هو أن الولايات المتحدة الأمريكية بعيدة كل البُعد عن ساحة المعركة ، التى تدور رحاها فى (أوروبا) و(آسيا) بالدرجة الأولى ، مع امتداد محدود فى (إفريقيا) ، وأن المحيط الأطلنطى ، بضخامته واتساعه ، يفصلها تمامًا عن كل خطوط المواجهة ، بحيث يستحيل أن يمتدّ إليها القتال ، على أية صورة من الصور ، فى أى وقت كان ..

ثم إن (بيرل هاربور) كانت فى الأصل مكانًا لإصلاح السفن والمدمرات ، وكان بعض ضباط وجنود البحرية الأمريكية يعتبرون أنفسهم محظوظين ، إذا ما تم نقلهم إليها ؛ باعتبار أنهم سيستمتعون هناك بالهواء المنعش ، والشمس المشرقة ، والاسترخاء بلا حدود .

وفى تلك الفترة ، التى اشتعلت فيها الأمور سرًّا ، فى

(بريطانيا) و(اليابان) ، كان ضباط وجنود البحرية الأمريكية يسترخون ، على أسطح مدمراتهم ، وعيونهم مغلقة خلف مناظيرهم الشمسية ، وبعضهم منشغل بممارسة رياضة الجولف ، فى وديان الجزيرة الخضراء اليانعة المشرقة ..

ولكن (تاناكا) لم ير هذا ، على الرغم من وضوحه ..

فعمليات إصلاح السفن ، وتنظيف أسطحها ، وتلميع مدافعها ، بدت له أشبه بحالة استعداد للحرب ، أما تواجد عدد كبير من المدمرات ، فهو حشد للقوات ، وحتى حالات التكاسل والاسترخاء ، بدت بالنسبة له نوعًا من التمويه والخداع ، ربما لأنه لم يصدِّق أن يتصرَّف جنود وضباط بهذا الاستهتار وهذه اللامبالاة ، وهم على أعتاب حرب ، من وجهة نظره على الأقل ..

وحتى تكتمل الصورة ، لم يرسل (تاناكا) تقاريره ، كما ينبغى أن يفعل أى جاسوس محترف ومحترم ..

فالمنطقى والعقلانى ، والمتعارف عليه فى عالم المخابرات ، أن يرسل الجاسوس ما يراه أمامه فحسب ، وأن يصف ما يحدث بمنتهى الدقة ، ثم يترك للخبراء بعدها مهمة التفسير والتنسيق وتحليل المعلومات ..

ولكن (تاناكا) لم يفعل هذا ..

لقد أرسل تقريرًا يحوى وجهة نظره ، ليؤكّد أن الأسطول الأمريكى يستعد للحرب ، ويعد أسلحته ، وينظمها ، ويحيط كل هذا بحالة من التمويه والخداع ؛ لإخفاء هدفه الحقيقى ..

والطريف أن التقرير الذى أرسله (تاناكا) قد وقع فى قبضة المخابرات البريطانية ، قبل أن يصل إلى اليابانيين ، وأنه قد تم إرسال نسخة عاجلة منه ، إلى رئيس الوزراء (وينستون تشرشل) شخصيًا ، فلم يكد يطالعه ، حتى تألّقت عيناه ، ولاك طرف سيجاره الضخم بأسنانه ، قبل أن يبتسم ابتسامته الوقور الرصينة ، قائلاً فى هدوء مستفز :

- من الواضح أن جاسوسهم هناك حمار .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

- وهذا من حسن حظنا .

وأمر بعدها بأن يكمل التقرير طريقه على الفور ..

وهذا ما كان ..

وعندما استقبل اليابانيون تقرير (تاناكا) ، ارتكبوا أكبر خطأ ، فى العملية كلها ، إذ إنهم قد صدّقوا كل حرف منه على الفور ، لمجرّد أنه يتفق مع تصوّرهم المسبق للأمر

كله على الرغم من أن ما سيترتّب على هذا قد يغيّر مسار التاريخ كله ..

وهذا ما حدث بالفعل ، فبناءً على التقرير الرسمى ، الذى قدّمه مدير المخابرات اليابانية ، أصدر إمبراطور اليابان قراره ، بشن غارة وقائية ، على الأسطول الأمريكى فى (بيرل هاربور) ، قبل أن يكمل استعداداته ، للهجوم على السواحل اليابانية فيما بعد ..

وكوسيلة للتمويه ، بدأ اليابانيون مفاوضات رسمية مع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية فى (واشنطن) ، فى بدايات ديسمبر ١٩٤١م ، فى نفس الوقت الذى تحرّك فيه الأسطول اليابانى بالفعل ، فى اتجاه جزيرة (أوهايو) ، وميناء (بيرل هاربور) .

وفى السابع من ديسمبر ١٩٤١م ، وبينما لا يزال المفاوضون اليابانيون فى واشنطن ، انقضت الطائرات اليابانية على ميناء (بيرل هاربور) ، وبدأت قصفها العنيف ، فى ساعة مبكرة للغاية ..

وكانت مفاجأة حقيقية للأمريكيين ، الذين انهالت عليهم القنابل اليابانية ، قبل أن يفيقوا من أثر النوم ، أو يبدءوا حتى عمليات التنظيف اليومية ، وعمليات الإصلاح المعتادة ..

بل إن بعض ضباط البحرية كانوا منهمكين فى مباراة جولف حامية ، عندما عبرت الطائرات اليابانية فوق رءوسهم مباشرة ..

ولأن (تاناكا) لم يكن محترفًا بكل المقاييس ، فقد شملته حماسة عارمة ، عندما رأى سفن الأسطول الأمريكى تتحطَّم وتغرق أمام عينيه ، بفعل القنابل اليابانية ، وراح يصرخ بلغة أمه ؛ لتحية اليابانيين ، وحثهم على الضرب أكثر ، وأكثر ..

وكان من الطبيعى أن ينكشف أمره ، مع انفعاله العجيب هذا ، وأن يهب بعض زملاء عمله ، فى محاولة لإلقاء القبض عليه ، تحت وطأة القنابل والانفجارات ..

ولكن المدهش أن (تاناكا) لم يقع فى قبضتهم قط ..

فبحكم نشأته ، فى كنف أمه اليابانية ، كان يجيد القتال ، ورياضات الدفاع عن النفس ، بمهارة تفوق خصومه مجتمعين ..

لذا فقد أفلت منهم ، وأسرع يفرّ من المكان ، تحت قصف المدافع المضادة للطائرات ، وانفجارات قذائف

اليابانيين ، التى انهالت على رءوس الأمريكيين بلا رحمة أو هوادة ..

وانشغل الكل بما يحدث ، وبمحاولة النجاة بأنفسهم ، والفرار بأرواحهم ، من ذلك الجحيم المستعر ، الذى لا يُبقى ولا يذر ، دون أن يفكِّر أحد فى أمر ذلك الجاسوس اليابانى الفار ..

وانتهت الغارة بسرعة ، وانسحبت الطائرات اليابانية ، تاركة خلفها أسطولاً أمريكيًا محطمًا ، وكرامة أمريكية جريحة ، تنزف بلا انقطاع ..

وبسرعة ، وتمامًا كما توقَّع رئيس الوزراء البريطانى ، اندفعت الولايات المتحدة الأمريكية ، تعلن الحرب على (اليابان) ..

وتدخل بثقلها الحرب العالمية الثانية ..

تمامًا كما خطَّط ودبَّر (وينستون تشرشل) ، الذى انتفخت أوداجه زهوًا ، وهو يتراجع فى مقعده الكبير الوثير ، وينفث دخان سيجاره الضخم ، قائلاً فى ثقة ، تحمل سلفًا رائحة النصر :

- الآن انقلبت الموازين ، وبدأت كفة الحرب تميل نحونا .

وكان على حق كعادته ، فدخول الولايات المتحدة الأمريكية إلى الساحة قلب كل الموازين ، وأربك الخطط النازية تمامًا ، وأخلّ بتوازن القوى ، على نحو بدأت معه الهزائم تنهال ، على الجانبين ، الألمانى واليابانى ، لتتغيَّر دفَّة الحرب كلها ، فى اتجاه الحلفاء ..

وراح النازيون يتراجعون ، ويتراجعون ، ويتراجعون ، لتهبط قوات الحلفاء فى (نورماندى) ، فى السادس من يونيو ١٩٤٤م ، ثم تتحرَّر (فرنسا) كلها ، فى أواخر العام نفسه ، وبعدها تنهار مقاومة (ألمانيا) ، فى أبريل ١٩٤٥م ، لتعلن استسلامها بلا شروط ، فى السابع من مايو ..

وبقيت (اليابان) وحدها فى الساحة ، تقاوم بلا أمل ، حتى أسقطت عليها الولايات المتحدة الأمريكية ثأرها ، متمثلاً فى قنبلتين ذريتين ، أزالتا (هيروشيما) و(ناجازاكى) من الوجود تمامًا ، فى أغسطس ١٩٤٥م ..

وهنا ، أعلنت (اليابان) استسلامها غير المشروط ، ووقِّعت وثيقة الاستسلام فى الثانى من سبتمبر ١٩٤٥م ..

وانتهت الحرب ، وتسلَّمت (أمريكا) كل وثائق المخابرات اليابانية ، وقائمة بكل جواسيسها فى العالم كله ..

ولكنها لم تكن قائمة كاملة ..

كانت تنقصها بضع صفحات ، ربما تم إتلافها عمدًا ، لسبب أو لآخر ..

ومن بين تلك الصفحات الناقصة ، كانت بيانات (تاناكا) الأمريكية الحقيقية ..

والعجيب أنه ، مع احتراق الملفات فى (بيرل هاربور) ، وضياع تلك الصفحات من (طوكيو) ، ضاع أثر الجاسوس اليابانى ، الذى وصفه رئيس الوزراء البريطانى يومًا بأنه مجرَّد (حمار) ..

وعلى الرغم من قلة خبرته ، اختفى (تاناكا) تمامًا ، فى قلب المجتمع الأمريكى ، ولم يُعثر له على أثر أبدًا ..

أو هكذا تقول التقارير الرسمية على الأقل ..

فربما لقى الرجل مصرعه ، فى هجوم (بيرل هاربور) ، أو ذاب فى مجتمع ما بعد الحرب ، فى (أمريكا) أو (أوروبا) ،

أو ظهر باسم جديد أو هوية جديدة ، أو أنه يعمل الآن لحساب الأمريكيين ، أو كان كذلك لبعض الوقت ..

من يدرى ؟! إنه عالم المخابرات ، الذى كان ، وأصبح ، وسيظلّ أبدًا لغزًا غامضًا على كل المستويات ..

نعم .. من يدرى ؟

★ ★ ★

مذكرات رجل مخابرات 4

سالب وموجب

مذكرات رجل مخابرات

أنا رجل مخابرات ..

واحد من آلاف ، فى كل أنحاء الأرض ، ينتمون إلى عالم خاص ..

خاص جدًّا

عالم سرى ، غامض ، لا يمكنك أن تتجاوز الأسوار المحيطة به قط ..

لا يهم من أنا ..

ما جنسيتى ..

أو إلى أية دولة أنتمى ..

فالقواعد واحدة ، فى كل الأحوال ..

القواعد اللازمة لتصنع رجل مخابرات ..

رجل يمكنه أن يصنع من نفسه درعًا ، لحماية دولة بأكملها ..

إذا ما استلزم الأمر ..

ولا تتصوَّر حتى أن مذكراتى هذه قد تصنع منك ذلك الرجل ..

فمهما حوت ، لن تتجاوز كونها مجرَّد كلمات ..

مجرَّد مذكرات رجل ..

رجل مخابرات .

٤ـ سالب .. وموجب ..

تؤكِّد معظم الأقوال المأثورة ، فى كل أنحاء العالم تقريبًا ، أن الانطباعات الأولى تدوم دائمًا ..

ولكننى ، وبعد أسبوع واحد ، من العمل فى جهاز المخابرات ، وبعد أن أنهيت مرحلة التدريبات الأوَّلية ، تأكَّدت من أن هذا القول خاطئ ..

خاطئ تمامًا ..

فمع لقائى الأوَّل به ، لم يرق لى أبدًا ، عريض المنكبين ؛ بسبب مرحه الزائد ، وابتسامته المشرقة دائمًا ، نظرًا لما ألفته فى كليتى العسكرية ، من الانضباط ، والصرامة ، وضبط النفس ، والجدية بلا حدود ..

أما الآن ، وبعد أسبوع واحد ، من تناول طعام الغداء معه ، فى المطعم الملحق بأحد مبانى الجهاز ، أصبحت أحترمه كثيرًا ..

كثيرًا جدًّا ..

بل لست أبالغ أبدًا ، عندما أؤكِّد ، بما لا يدع مجالاً للشك ، أننى قد صرت مبهورًا به ..

وحتَّى النخاع ..

فلست أنسى أبدًا تلك الجدية الهادئة ، التى راح يتحدث بها إلىَّ ، مع بساطته النادرة ، وهو يشرح لى الفارق الجوهرى ، بين المخابرات الإيجابية ، والمخابرات السلبية ..

بل ، ومازلت أذكر نص كلماته ، وهو يقول :

ـ أجهزة المخابرات ، فى أية دولة فى العالم ، تنقسم إلى قسمين رئيسيين .. المخابرات الإيجابية ، والمخابرات السلبية ، أو الوقائية .. فالأولى مهمتها هى السعى ، لجمع كل المعلومات الممكنة ، السياسية والاقتصادية والعسكرية ، عن دول الجوار أو المواجهة ، أو الدول التى تربطه بها علاقة ما ، بحيث يمكنها أن تضع أمام أصحاب القرار ، فى دولتها ، كل ما يضمن اتخاذهم القرارات الصحيحة ، فى الأوقات الصحيحة ، سواء فى زمن السلم ، أو زمن الحرب ، وفى بعض الأحيان ، يتطوَّر عمل المخابرات الإيجابية ، إلى إثارة القلاقل ، أو الفتن ، أو حتى أعمال التدريب والتخريب ، لو اقتضى الأمر ، وبالذات فى أوقات المواجهة أو زمن الحروب ، والمخابرات الإيجابية تسعى للنجاح فى عملها ، بكل الوسائل الممكنة ، ومنها تجنيد عملاء ، وسط صفوف العدو أو الخصم ، أو زرع الجواسيس فى أعماقه ، أو إخفاء بعض أجهزة الرصد والمراقبة والتنصُّت ،

وكل ما يمكن أن يخطر على بالك ، مما يحقق السيادة المعلوماتية لدولتها .. أما المخابرات السلبية ، أو المخابرات الوقائية ، فهى الجانب المعاكس تمامًا لهذا ، أو أنها المسئولة عن حماية الأمن القومى ، ومنع مخابرات الخصم من تحقيق كل الأهداف التى تسعى إليها ، فى الجانب الإيجابى منها ، لذا فهى تحمى الأسرار ، وتكشف الجواسيس والعملاء ، وتمنع الفتن والانقلابات وغيرها .

يومها أكمل حديثه الجاد ، ثم مال نحوى ، واستعاد ابتسامته ، وهو يسألنى بلهجته المرحة ، ذات اللمحة العابثة :

ـ والآن ، أيهما ستختار ؛ لبدء عملك هنا ..

تراجعت فى مقعدى ، وأنا أسأله فى اهتمام :

ـ وهل الاختيار متاح ؟!

أجابنى فى سرعة :

ـ بالتأكيد .

ثم استعاد جديته ، متابعًا :

ـ القاعدة الرئيسية هنا ، هى ضرورة أن تعمل فى مجال ، يمكنك التفاعل معه .. فى البداية على الأقل ؛ فعملنا يحتاج

إلى منتهى اليقظة ، ومنتهى التفاعل .. باختصار ، يحتاج إلى منتهى الحب ، ولن يمكنك أن تمنح عملك كل هذا ، إلا لو أحببته بحق .

كانت كلماته أقرب إلى الفلسفة والشاعرية ، منها إلى كلمات رجل مخابرات محنك ، إلا أنها راقت لى كثيرًا ، مما جعلنى أسأله فى اهتمام :

- وماذا تقترح ؟!

ابتسم ، قائلاً فى دهشة :

- أنا ؟!

ثم أطلق ضحكة عالية مرحة ، قبل أن يستطرد :

- المفترض أن هذا قرارك أنت .

قلت فى سرعة :

- وأنا أسألك النصح والمشورة .

بدت على وجهه دهشة كبيرة ، استغرقت لحظة واحدة ، قبل أن يتراجع فى مقعده ، ويقول فى بطء :

- تسألنى أنا ؟!

أجبت بنفس السرعة :

- بالتأكيد .

لاذ بالصمت بضع لحظات ، وهو يتطلع إلى وجهى مباشرة ، ويحك ذقنه بسبابته ، على نحو يوحى بأنه يحاول كتمان انفعال ما فى أعماقه ، قبل أن يقول :

- فليكن .

نطقها بلهجة غلبها انفعالها ، قبل أن يتنحنح ، ويستعيد توازنه ، مستطردًا فى حزم :

- فى هذه الحالة ، أنصحك بأن تبدأ عملك فى المخابرات الوقائية .

سألته فى اهتمام :

- ولماذا ؟!

أشار بيده ، قائلاً :

- العمل فى المخابرات الوقائية أقل خطورة ؛ إذ إنك ستعمل داخل حدود دولتك ، فى أغلب الأحيان ، وستملك ناصية نفسك ، وتجد حولك كل ما تحتاج إليه ، وكل من تحتاج إليه ؛

لإتقان العمل على أفضل وجه ، ثم إنك ، فى الوقت ذاته ، ستكتسب خبرة لا بأس بها ، فى التعامل مع الجواسيس والعملاء ، وستتعلم كل ما ينبغى أن تتعلمه ، بشأن الإجراءات القانونية الصحيحة ، التى تجعل قضيتك محكمة تمامًا .

ابتسمت وأنا أقول ، فى شىء من الزهو لم أتعمّده :

ـ أظننى قد اكتسبت خبرة مناسبة فى هذا الشأن ، من خلال ملفات العمليات السابقة .

تراجع فى مقعده ، وعاد يتطلّع إلىّ مباشرة ، قبل أن يسألنى فجأة :

ـ هل تجيد لعبة الشطرنج ؟!

أدهشنى سؤاله ، فأجبته فى حذر :

ـ إلى حد ما .

سألنى فى جدية :

ـ هل تعتقد أنه يوجد لاعب شطرنج واحد ، فى العالم كله ، يجهل قواعد اللعبة ؟!

أجبته فى سرعة ودهشة :

ـ هذا مستحيل !

عاد يميل نحوى ، قائلاً :

ـ إذن فكل لاعب شطرنج يعرف قواعد اللعبة .

هتفت :

ـ بكل تأكيد .

تطلّع إلى عينىّ مباشرة هذه المرة ، وهو يقول :

ـ وعلى الرغم من هذا ، فلن تجد دورى شطرنج متشابهين أو متطابقين تمامًا ، مهما طالعت .

أدركت ما يعنيه على الفور ، فتراجعت فى مقعدى ، وأنا أغمغم :

ـ هذا صحيح .

ابتسم ، مطمئنًا لاستيعابى الفكرة ، وهو يقول :

ـ هكذا عمليات المخابرات .. الكل يعرف القواعد ، والكل يتبعها بمنتهى الدقة ، ولكن لا توجد عمليات متشابهة قط .. كل عملية لها ظروفها ، وتعقيداتها ، وأساليبها ، والوسائل اللازمة للتعامل معها ، والوسيلة الوحيدة لاكتساب الخبرة ، فى هذا المضمار ، هى أن تخوض اللعبة بنفسك ، وأن تواجه

كل مخاطرها ، ومتاعبها وتعقيداتها ، وأن تتعامل بنفسك مع جاسوس أو عميل ، وتتابعه ، وتراقبه ، وترصده ، وتلاعبه ..

وتوقّف ليلتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن تتسع ابتسامته ، وهو يضيف :

ـ بهذا فقط ، تصبح رجل مخابرات .

كنت مبهورًا تمامًا بما يقول ، لذا فقد رحت أتطلّع إليه صامتًا بضع لحظات ، قبل أن أسأله فى خفوت :

ـ أهكذا بدأت أنت ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ نعم .

سألته فى فضول :

ـ وأين أنت الآن ؟!

صمت طويلاً هذه المرة ، قبل أن يجيب فى بطء :

ـ لماذا تتعجّل الأمور ؟!

ثم اعتدل فجأة ، مضيفًا :

ـ قريبًا ، ستعرف كل شىء عما يحدث هنا .

هكذا أنهى حديثه ، فى ذلك اليوم ، ثم أتبعه بابتسامة عريضة ، وهو يقول فى مرح :

ـ ألن نتناول طعامنا ؟!

ووجدت نفسى أضحك بدورى ، هاتفًا فى حماسة :

ـ بالتأكيد .

ومنذ ذلك اليوم ، ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بعريض المنكبين ، وكذلك بوجه القنفذ ، الذى اعتاد المرور بمكتبى يوميًا ، ليروى لى بعض العمليات القديمة ..

والواقع أننى أدمنت هذه اللقاءات ..

أدمنت الاستماع إلى العمليات القديمة ، من بين شفتى وجه القنفذ ..

وأدمنت الاستزادة من المعارف والقواعد ، فى جلساتى مع عريض المنكبين ..

وانهالت الكشوف على ذهنى ، على نحو أدهشنى كثيرًا ..

فلقد أدركت أن الصارم كان يومًا الدينامو المحرّك للجهاز كله ، أما ذلك الذى التقيته فى البداية ، فكان أبرع رجال

العمليات الخاصة ، والرجل الذى تُسند إليه كل عملية ، تحتاج إلى قلب ميت ، وشجاعة بلا حدود ، وانتحارية لاتعرف التراجع أو الاستسلام ..

ولكن المفاجأة الكبرى كانت تخص ذلك المرح عريض المنكبين ..

فالرجل ، على الرغم من مرحه الزائد ، هو عبقرى الشطرنج المخابراتى ، وأبرع من يدير عملية ما ، مهما بلغت صعوباتها وتعقيداتها ..

إنه أشبه بـ (أينشتين) ، بالنسبة لمضماره هذا ، ولقد برزت موهبته الفذة هذه ، منذ كان يعمل فى المخابرات الوقائية ، وتطوَّرت على نحو مدهش ، عندما بدأ عمله كضابط حالة ، مما جعله يحتل الآن مكانة خاصة جدًّا فى الجهاز ..

ومن واقع الملفَّات ، بدا من الواضح أنه يمتلك عقلية شديدة الدقة والتنظيم ، ويمكنها التعامل مع عدة محاور فى آن واحد ، وبمهارة مدهشة ، وعبقرية يندر وجودها ، فى هذا المجال ..

ومع معرفتى هذه ، ازداد احترامى له ..

وانبهارى به ..

بل وأصبحت مبهورًا ببساطته ..

ومرحه ..

ومداعباته المستمرة ..

وتنفيذًا لنصيحته ، قرَّرت أن أبدأ العمل ، من خلال الفرع الوقائى فى الجهاز ، وسجلت مطلبى هذا رسميًّا ..

وبدأت مرحلة التدريب الجديدة ..

وهذه واحدة من مزايا العمل ، فى جهاز مخابرات ..

أنك لاتتوقَّف عن التعلُّم واكتساب الخبرات أبدًا ..

وهذا أمر ممتع ..

وإلى أقصى حد ..

ولقد أقبلت على مرحلة التدريب الجديدة هذه بمنتهى الشغف ، ورحت أنهل منها فى شراهة غير مسبوقة ، حتى إننى حصلت على تقدير ممتاز فى نهايتها ..

وعلى مفاجأة مدهشة ..

ورائعة ..

فبعد أسبوع واحـد ، من انتهاء الدورة ، تم تكليفى بعملية جاسوسية داخلية ..

أول عملية فى حياتى المهنية ..

وفى عالمى المدهش ..

عالم المخابرات ..

★ ★ ★

تابع فى الكتب القادمة



عملية الأذن الخفية (من قصص الصراع العربى الإسرائيلى)

سطعت الشمس فى كبد السماء ، على نحو غير مألوف ، فى تلك الفترة من العام ، مع انتصاف شتاء ١٩٧٢م ، وانتشرت أشعتها الذهبية فى تلك الحديقة الأنيقة الواسعة ، فى (الجيزة) ، لتبعث دفئًا محببًا فى الأجساد ، حتى إن الجميع شعروا بنشاط وانتعاش ، وبالذات الرئيس (أنور السادات) ، الذى استرخى فى مقعده ، مستمتعًا بأشعة الشمس ، وأرخى جفنيه على نحو قد يخدع المشاهد غير المدقّق ، ويوحى إليه بأن الرئيس غارق فى سبات عميق ، لولا الدخان المتصاعد من غليونه ، وتلك الإشارات والإيماءات الخفيفة ، التى تصدر عنه بين الحين والآخر ، وهو يستمع إلى الرجل الذى يجالسه ، والذى بدا منهمكًا فى التحدّث إليه فى اهتمام بالغ ..

والواقع أن الرئيس (السادات) كان ، على عكس ما يبدو ، شديد الانتباه لكل كلمة ينطقها الرجل الذى لم يكن سوى مدير أكبر وأقوى جهاز أمنى فى (مصر) ، وربما فى الشرق الأوسط كله ..

مدير المخابرات العامة المصرية ..

كان الرجل ينقل إلى الرئيس تفاصيل آخر عمليات ، قام

بها جهاز المخابرات ، ويلخص له آخر النتائج والمعلومات ، التى توصّل الرجال إليها ، بذكائهم ، وحنكتهم ، ومهاراتهم المتعدّدة ..

حتى بلغ مرحلة شرح آخر تطورات المخابرات الإسرائيلية ..

وعند تلك النقطة بالذات ، اعتدل الرئيس فى مجلسه ، وأعاد حشو غليونه وإشعاله ، وبدا عليه اهتمام زائد ، وأصغى جيدًا لمدير مخابراته ، ثم لم يلبث أن عقد حاجبيه ، وقال :

ـ من الواضح أن الإسرائيليين يعقدون اجتماعات سرية للغاية هذه الأيام ، وهذا لا يشعرنى أبدًا بالارتياح .

وافقه مدير المخابرات بإيماءة من رأسه ، وقال :

ـ نحن أيضًا لا نشعر بالارتياح يا سيّدى الرئيس ، ولكننا لا نقف أمام هذا الشعور فحسب ، وإنما نبذل قصارى جهدنا ، ونحقّق نتائج معقولة فى كل الأحوال تقريبًا ، فلنا عملاء فى صفوف المخابرات الإسرائيلية ، ووسط مجتمع ضباط وجنود الجيش الإسرائيلى ، وفى (الهستدروت) والصحف ، و ...

قاطعه الرئيس فى اهتمام :

ـ وماذا عن مقر (جنوة) ؟

كان الرئيس (السادات) يشير إلى واحد من أخطر مقار المخابرات الإسرائيلية فى (أوروبا) ، إذ يجتمع فيه قادتهم هناك ، مع بعض أهم القادة من (تل أبيب) ، لاتخاذ قرارت غاية فى الخطورة والأهمية ، بشأن الصراع العربى الإسرائيلى ..

وكان الإسرائيليون يؤكدون طوال الوقت ، فى ثقة وزهو مبالغين ، أن التوصل إلى مقرّهم هذا ، أو اختراقه ، ضرب من المستحيل ، وأنهم أحاطوه بنظام أمنى خاص ، بالغ الدقة ، على نحو لم يسبق له مثيل ..

لذا فقد انعقد حاجبا مدير المخابرات بشدة ، عند الإشارة إلى هذا المقر ، فى مدينة (جنوة) الإيطالية ، وقال فى حزم :

- إننا نبذل قصارى جهدنا فى هذا الشأن ، ياسيادة الرئيس .

أجابه الرئيس بسرعة :

- هذا لا يكفى فى الوقت الحالى .. أنت تعلم أننا مقدمون على حرب شاملة ، وكل قرار يُتخذ فى مقر (جنوة) قد يربك خططنا الرئيسية .

ثم مال نحوه ، مضيفًا بلهجة صارمة حاسمة :

- لذا فمن الضرورى أن تكون لنا أذن خفية داخل هذا المقر .. وبأى ثمن يامدير المخابرات .. هل تفهمنى ؟ بأى ثمن .

صَمت مدير المخابرات بضع لحظات ، وعيناه لا تفارقان عينى الرئيس ، ثم لم يلبث أن أجاب فى صوت قوى :

- أفهمك ياسيادة الرئيس .. أفهمك جيدًا ..

وكانت البداية ..

فبعد ساعة واحدة من هذا الاجتماع ، كان مدير المخابرات العامة داخل حجرة الاجتماعات ، فى مبنى المخابرات ، يروى لفريق من أقرب مساعديه ما حدث ، فى لقائه مع الرئيس ، ويطرح الأمر أمامهم للمناقشة واتخاذ القرار ..

واستوعب الرجال الأمر بسرعة .. كالمعتاد ..

وكان الهدف واضحًا ، على الرغم من صعوبته الشديدة ، التى تصل إلى حد الاستحالة ..

أن يتمّ التوصل إلى المقر السرى لقيادات المخابرات الإسرائيلية فى (جنوة) ، وزرع أجهزة تنصت داخله ..

وعلى الرغم مما يبدو عليه الأمر ، من الاستحالة ، راح الرجال يناقشونه فى كل اهتمام وعقلانية ، وبلا أدنى يأس أو إحباط ..

فالخطوة الأولى ، وهى التوصل إلى المقر ، تحتاج إلى معرفة

أولئك الذين يجتمعون فيه ، وتحديد شخصياتهم ، وطباعهم ، واهتماماتهم ، وميولهم ، وحتى أوجه القصور .. والشذوذ فى حياتهم ..

وصدر الأمر لكل مكاتب المخابرات المصرية ، فى مختلف بلدان (أوروبا) ، لبذل جهد مضاعف ، وجمع كل المعلومات المطلوبة ، بمنتهى الدقة والسرية ..

ولم يكن هذا بالأمر السهل أو اليسير ..

لقد انطلق رجال مكاتبنا فى (أوروبا) ، فى كل الاتجاهات ، وبكل السبل الممكنة ، وراحوا يبذلون جهدًا خرافيًا ، حتى إن بعضهم لم يكن يتذوق النوم إلا لحد محدود من الساعات ، لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة ، فى كل ثلاثة أو أربعة أيام ؛ ليراقبوا كل من ينتمى إلى المخابرات الإسرائيلية ليلاً ونهارًا ، وليجمعوا أدق أدق التفاصيل والمعلومات عنهم .. ولحسن الحظ ، لم يضع كل هذا الجهد هباءً ..

لقد اجتمعت لدى المخابرات العامة المصرية فى النهاية ، كمية هائلة من المعلومات والحقائق والتفاصيل ، تكفى لمعرفة كل من يجتمعون فى مقر (جنوة) السرى ، من هيئتهم ، وحتى أنواع كريم الحلاقة المفضّل لديهم ..

ومرة أخرى ، اجتمع مدير المخابرات برجاله ، وراجعوا معًا كل ما لديهم ، قبل أن يقول فى حزم :

- الآن أصبحت لدينا اللبنة الأساسية للعملية ، والمطلوب أن ننتقل الآن إلى الخطوة التالية ، أو بمعنى أدق .. إلى مرحلة التنفيذ .

وطوال الساعات العشر التالية ، وبلا انقطاع تقريبًا ، إلا لتناول بعض الشطائر السريعة ، أو أقداح الشاى الساخن ، راح المدير يناقش الأمر مع رجاله بكل التفاصيل ، لتحديد الوسيلة المناسبة لمعرفة موقع المقر السرى ، وزرع أجهزة التنصُّت داخله ..

فقادة المخابرات الإسرائيلية ، الذين تم تحديدهم فى (أوروبا) ، كانوا يحاطون بسرية بالغة ، وبنظم أمنية شديدة التعقيد ، عندما يتحدَّد موعد أحد الاجتماعات فى مقر (جنوة) ، ثم يستقلّ كل منهم طائرة خاصة ، تحمله إلى جهة مجهولة ، وعلى نحو يستحيل تعقُّبه ؛ ليصل إلى المقرّ السرى ، ويتم الاجتماع ..

وكان من المحتم أن نجد وسيلة لتعقُّب أحدهم ، حتى المقر ، وتحديد موقعه ، ونظم الأمن الخاصة به ، والتى يستحيل اختراقها ، كما يؤكد الإسرائيليون ..

وبعد أن احتدم النقاش ، ونوقشت كل الاقتراحات ووجهات النظر ، وتبيّن استحالة كل منها ، من الناحية العملية ، وبدأت روح اليأس والإحباط تتسلّل إلى الرجال ، اندفع (ر . ج) يقول بغتةً :

- الأمر يحتاج إلى شخص بينهم .

التفت إليه الجميع فى دهشة وتساؤل ، سأله المدير فى شيء من الحذر :

- شخص بين من ؟!

اعتدل (ر . ج) فى مقعده ، وبدا عليه الاهتمام والحماسة ، وهو يجيب :

- شخص بين المجتمعين ، يقودنا إلى المقر السرى ، ويسهم فى زرع أجهزة التنصُّت فيه .

تفجَّرت دهشة عارمة فى وجوه الحاضرين ، وتبادلوا نظرات حائرة مع بعضهم ، ثم تطلَّعوا جميعًا إلى (ر . ج) ، وسأله أحدهم فى استنكار شديد :

- هل تفكّر فى تجنيد أحد قادة المخابرات الإسرائيلية فى (أوروبا) ؟!

أومأ برأسه إيجابًا فى هدوء عجيب ، وهو يقول :

- بالضبط .. هذا هو الحل الوحيد فى رأيى .

كان أقلّ ما يمكن أن توصف به فكرته ، هو أنها مجنونة ، إلا أنه وعلى ما جرت عليه العادة فى جهاز المخابرات ، لم يكن هناك ما يمنع من مناقشتها ، ودراستها ، وبحث إمكانيات تطبيقها ..

والعجيب أنه ، كلما توغَّل (ر . ج) فى شرح خطته ، كان الاستنكار والاعتراض يتراجعان رويدًا رويدًا ، ويحلّ محلّهما استعداد للفهم ، والاستيعاب ..

بل وربما بعض الاستحسان والتقدير أيضًا ..

صحيح أن تجنيد أحد ضباط المخابرات ليس بالمهمة السهلة أو اليسيرة ..

بل هو أمر غاية فى الصعوبة والدقة ..

إلا أنه كان البديل الوحيد المطروح ، فى تلك اللحظة ، بعد أن استحالت كل البدائل الأخرى ، ولم تلق قبولاً أو اقتناعًا ..

وفى نهاية الاجتماع ، اتفق رأيهم على بذل المحاولة ، على الرغم من خطورتها ، وأطلقوا على العملية اسم (عملية الأذن الخفية) ، وتم إسنادها رسميًا إلى (ر . ج) ..

ولم يضع الرجل لحظة واحدة ..

فبعد انصراف الجميع إلى بيوتهم ، وعلى الرغم من أنه لم يذق النوم منذ أكثر من ثلاثين ساعة متصلة ، جلس (ر . ج) يراجع كل التفاصيل والمعلومات مرة أخرى ، وهو يفرد أمامه صور القادة الإسرائيليين ، ويتطلع إليها بين الحين والحين ، وكأنما يحاول أن يستشف من ملامحهم ما لم تورده تقارير المراقبة والمتابعة ..

ولسبب ما ، توقف طويلاً أمام صورة المرأة الوحيدة بين القادة ..

(سارة جولدشتاين) ..

لا أحد يدرى لماذا وقع اختياره عليها بالذات كهدف محتمل ، على الرغم من أنها امرأة قاسية ، شرسة ، قضت أيام طفولتها الأولى فى معسكرات الاعتقال النازية ، إبان الحرب العالمية الثانية ، ثم هاجرت مع والديها إلى (فلسطين) ، قبل حرب عام ١٩٤٨م ، حيث التحق والدها بصفوف المقاتلين ، ولقى حتفه فى (الفالوجا) ، ونشأت هى على شظف العيش مع أمها ، فى إحدى المستعمرات البدائية ، فى صحراء النقب ، والغضب والمرارة يملآن قلبها ، ويتضاعفان بمرور الوقت ، حتى التحقت بصفوف الجيش الإسرائيلى ، ثم

بالمخابرات الإسرائيلية ، التى ترقت فيها بسرعة ، نظراً لصرامتها الشديدة ، وقلبها الذى لا يعرف الرحمة ، فى تعاملاتها مع الأسرى والمعتقلين ، وكل من يتم اتهامه بالتجسس لحساب العرب ..

ولو أن أحداً من رفاق (ر . ج) علم باختياره لها ، كأول هدف للبحث ، لأخذته الدهشة ، وامتزجت فى أعماقه بفيض من الاستنكار والاعتراض ، ولرفض الفكرة تماماً ..

بل ، ولربما اتهم (ر . ج) بالحماقة والجنون أيضاً ..

ولكن شيئاً ما فى أعماق الرجل ، كان يدفعه دفعاً نحو (سارة جولدشتاين) بالذات ..

ربما هو ذلك التحدى الدائم ، الذى يجرى فى عروقه مجرى الدم ..

أو هى غريزة خاصة ، نبعت من موهبة شخصية ، ونمت مع الزمن والخبرة ، حتى صار يمنحها الثقة نفسها ، التى يمنحها لعقله وفراسته وحسن استنتاجه ..

المهم أنه اختار (سارة) ..

وأطلق كل فريقه خلفها ..

لم يكن يبحث عن أخطاء قديمة ، أو نقاط ضعف يمكن استغلالها ، وإنما ركَّز تفكيره وعمله كله على الثغرة الوحيدة ، التى يمكن النفاذ من خلالها إليها ..

صديقها (ميخائيل بوروسكى) ..

و(ميخائيل) هذا مهاجر يهودى بولندى ، يصغرها بسبعة أعوام ، ويعمل فى المصانع الحربية الإسرائيلية ، ولقد التقت به منذ عدة سنوات ، فى أثناء تفتيش دورى روتينى ، بعد حرب عام ١٩٦٧م ، وجذبتها إليه ابتسامته الهادئة ، وعيناه الزرقاوان ، ولم تمض عدة أشهر ، حتى كانت غارقة فى حبه حتى النخاع ..

(سارة) الذئبة الشرسة ، وقعت فى غرام (ميخائيل) ، الحمل الهادئ والوديع ..

ولأن (سارة) محترفة ، فلم تسمح للحب بإلغاء عقلها ومنطقها ، وإنما قامت بعمل تحريات واسعة حول الشاب ، وراقبته لشهر كامل ، حتى تتأكَّد من سلامة أمره ..

وبعدها أعلنته بحبها له ...

ولم يفترقا منذ ذلك الحين قط ..

ولهذا السبب الأخير بالذات ، ركَّز (ر . ج) كل جهوده على (ميخائيل بوروسكى) ، وطلب من فريقه مراقبته بمنتهى الإحكام ، وإحصاء تحركاته ، وخطواته .. وحتى الأنفاس التى تتردَّد فى صدره ..

وطال الوقت ، وانهمك الرجال فى التتبُّع والمراقبة ، ومضى الزمن ، واقتربت نهايته عام ١٩٧٢م ، وبداية عام ١٩٧٣م ، و...

«خبر مدهش عن (ميخائيل بوروسكى) ..»

انتفض جسد (ر . ج) فى انفعال جارف ، عندما نطق أحد رجاله العبارة فى مكتبه ، وهبَّ من مقعده ، يسأله فى لهفة :

- هل أسفرت المراقبة عن شىء ؟!

أشار الرجل بسبَّابته مجيبًا :

- بل أوقعته بين أصابعنا .

ثم مال نحوه ، مستطردًا بلهجة خاصة :

- الولد يعمل لحساب المخابرات السوفيتية .

كانت مفاجأة مذهلة ، لايمكن هضمها أو استيعابها بسهولة ..

(سارة جولدشتاين) ، التى نالت كل هذه الشهرة

الواسعة فى عالم المخابرات الإسرائيلية ، خدعها مهاجر بولندى ، هادئ الملامح ، ساحر النظرات ..

الأفعى الرقطاء ، وقعت فى فخ القط السيامى الرقيق ..

وبقدر ما كانت المفاجأة ، قررٌ (ر . ج) استغلالها على نحو لم يسبق له مثيل ، فى عالم المخابرات ، بكل سحره وغموضه وأسراره ..

كان عام ١٩٧٣م قد بدأ بالفعل ، وبدأ معه العدّ التنازلى لحرب أكتوبر ، ولم يعد من الممكن إضاعة المزيد من الوقت ، قبل زرع الأذن الخفية فى مقر اجتماعات قادة المخابرات الإسرائيلية السرى فى (جنوة) ..

كان من المحتم أن تبدأ عملية التنصُّت على اجتماعاتهم وقراراتهم السرية ، فى هذه الفترة بالذات ..

لذا ، فقد قرَّر (ر . ج) اقتحام الأمر مباشرة ..

ودون إبطاء ..

وعندما طرح خطته الجديدة على مائدة الاجتماعات ، عاد رفاقه يحدّقون فى بعضهم ، ثم ينقلون تحديقاتهم إلى وجهه ، قبل أن ينفجروا بالاعتراض والاستنكار ..

ثم بدأت مناقشة الفكرة الجنونية الجديدة ..

وتلاشت الاعتراضات رويدًا رويدًا ، خلال الساعات الست ، التى استغرقها ذلك الاجتماع ، والتى انتهت بأن حزم (ر . ج) حقائبه ، وسافر فى طائرة السابعة والربع صباحًا إلى (باريس) ، حيث تقضى (سارة) إجازتها مع حبيبها (ميخائيل بوروسكى) ..

ومن المؤكَّد أن (سارة جولدشتاين) لن تنسى أبدًا ما حدث فى تلك الليلة ، عندما عادت وحدها إلى حجرتها بالفندق ، وأضاءت الأنوار ، لتجد أمامها (ر . ج) يبتسم فى هدوء ، ويقول فى بساطة مدهشة ، وبلغة عبرية تتفوَّق فى إجادتها وسلاستها على لغتها هى نفسها :

ـ مساء الخير يا (سارة) .. أنا (و . و) .. ضابط فى المخابرات العامة المصرية .

كانت مفاجأة مذهلة ، ومواجهة مباشرة ، لا مثيل لها فى تاريخ المخابرات كلها ، بكل أجهزتها ونظمها ، لذا فقد تجمَّدت (سارة) فى مكانها ، ولم تجد ما تفعله ، وهى تحدِّق فى (ر . ج) ، الذى اتسعت ابتسامته ، وأشار إلى حقيبته ، قائلاً :

ـ عندى لك أشياء تهمك رؤيتها .

ولأنها ضابطة مخابرات محترفة ، تمالكت (سارة) أعصابها ، وواجهت رجل المخابرات المصرى بجرأة مماثلة ، وسألته عما تحويه الحقيبة ، فأفرغ محتوياتها فى هدوء ، ووضعها كلها أمام عينيها ، وتركها تحدّق فيها ، وتلتهمها ببصرها طويلاً ، وقلبها يكاد يهوى بين قدميها ..

كانت مجموعة كبيرة من الصور ، والوثائق ، والأفلام ، التى تؤكّد أن حبيبها (ميخائيل بوروسكى) جاسوس سوفيتى ، وأنه يستنزف منها الأسرار الحربية والعسكرية ، طوال خمس سنوات كاملة ..

ولم تستطع (سارة جولدشتاين) احتمال المفاجأة المذهلة ..

لقد انهار تاريخها العسكرى والسياسى دفعة واحدة ..

بل تحطّم كيانها كله ، كضابطة مخابرات محنّكة ..

وعندما عجزت قدماها عن حملها ، وسقطت على أقرب مقعد إليها ، مال (ر . ج) نحوها ، وهمس فى أذنها :

ـ كل شىء له حل .. كل شىء .

لم تسأله (سارة) عما يعنيه ، فقد كانت تفهم الموقف جيّدًا كمحترفة ..

لقد أصبح مصيرها كله فى قبضة المصريين ..

إما أن يكشفوا أمرها ، وأمر حبيبها الجاسوس السوفيتى ، ويحطمون تاريخها ومستقبلها كله ..

وإما ....

وفى هدوء ، راح (ر . ج) يقدّم لها الجزء المتبقى من العرض ..

المكافأة المالية السخية ، والحماية المستقبلية ، و ... ، و ...

وعندما تم عقد الاجتماع التالى ، فى مقر (جنوة) السرى ، كانت (سارة جولدشتاين) أول الحاضرين ، وأكثرهم حماسة وثقة ..

وعند انصرافها ، تأكّدت من أنها قد تركت خلفها ذلك القرص الأسود الصغير ، الذى أعطاها إياه (ر . ج) ، فى المكان الذى حدّده لها بالضبط ..

وفى منتصف شتاء ١٩٧٣م ، وبعد عام واحد من بدء العملية ، ارتسمت على شفتى مدير المخابرات العامة المصرية ابتسامة كبيرة ، وهو يجلس فى حديقة منزل الرئيس فى الجيزة ، ويقول فى ثقة وزهو وارتياح :

ـ تم تنفيذ العملية يا سيادة الرئيس صرنا نسمع دبيب النمل فى مقر (جنوة) ..

وهنا ابتسم الرئيس السادات ابتسامة كبيرة، تموج بالارتياح، وهو يومئ برأسه فى سعادة لمدير المخابرات ..

وراحت ابتسامة الرئيس تتسع، وتتسع، حتى جاءت حرب أكتوبر ١٩٧٣م؛ لتعلن النجاح الحقيقى للعملية ..

عملية الأذن الخفية ؟

* * *

د. نبيل فاروق

حرب المعرفة

الحرب النفسية

(الحلقة الأولى)

١ـ عبر التاريخ ..

مدافع .. قنابل .. دبابات .. طائرات .. صواريخ ..

عشرات الأسلحة ، فى كل حرب ، تحبس أنفاسنا ، وتعتصر قلوبنا ، وتفجّر فى أعماقنا مزيجًا عجيبًا ، من الخوف ، والانبهار ، والذعر ، وربما الارتياع أيضًا .

وما إن تنشب حرب من الحروب ، حتى نشاهد صور القصف الجوى ، والانفجارات ، وأمطار القنابل والرصاصات والدم ..

وفى أعمق أعماقنا ، نتصوَّر أن هذه هى الحروب ..

دمار ، ووبال ، ودماء ، وانهيارات ، وقتلى ، وصرعى .. و ... و ...

ومن كثرة ما تحتشد الصور والمشاهد فى ذهننا ، وفرط ما يراق فى كياننا من ألم ومرارة ، ننسى دومًا أن كل هذا مجرَّد الصورة المادية للحرب ..

وليس كل الحرب ..

فخلف كل هذا ، وبين سطوره ، وقبله وبعده ، وفى خلاله أيضًا ، تدور دوما حرب طاحنة ضروس ، قد لا تنطلق فيها

رصاصة واحدة ، وعلى الرغم من هذا ، فالخبراء يعتبرونها جزءًا أساسيًا من الحرب الشاملة ..

إنها الحرب المعنوية ..

أو الحرب النفسية ..

وعلى الرغم من أن معظمنا يعرف المصطلح تماما ، وربما يردِّده كثيرًا أيضًا ، إلا أن قليلين ..وقليلين جدًا من يدركون ، معناه ..

معناه الحقيقى ..

وندرة هى من تعرف تاريخه ، وبداياته ، ونشأته الأولى عبر التاريخ ..

فالحرب النفسية ، هى تلك التى تستهدف نفسية الخصم ومعنوياته ، دون جسده وقدراته الفيزيقية ..

الحرب التى تسعى لتشكيل فكره ، وتوجيه عقله إلى هدف محدود ، يخالف حتمًا كل ما يمكن أن يجعله فعَّالاً ، فى ميدان الحرب والقتال ..

ولقد عرف العالم تلك الحروب النفسية منذ زمن بعيد ..

بعيد للغاية ..

فالتاريخ يعود بنا ، فى هذا الشأن ، إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف وخمسمائة عام ..

وبالتحديد إلى عهد (تحتمس الثالث) (١٤٩٠-١٤٣٦ق.م)

و(تحتمس الثالث) هذا هو سادس فراعنة الأسرة الثامنة عشرة ، ولقد آل إليه العرش وهو فى الأربعين من عمره ، على عكس من سبقه من فراعنة الأسرة كلها ..

وعندما تقلَّد (تحتمس الثالث) عرشه ، كانت منطقة الشرق الأوسط كلها غارقة فى خضم من الاضطرابات والعواصف السياسية ، التى لم ترق له أبدًا ، مما جعله يتخذ قرارًا خطيرًا جدًّا ، بمقاييس ذلك العصر ..

قرَّر أن يسيطر على المنطقة كلها ..

وفى سبيل هذا ، خاض (تحتمس الثالث) سبع عشرة حملة حربية ظافرة ..

والتاريخ يقول : إنه قد أذهل أهل عصره ..

فبمبادرة مذهلة ، ألغى (تحتمس الثالث) كل النظم القتالية والعسكرية ، التى كانت متبعة من قبله ، وقسَّم الجيش إلى

قلب وجناحين ، بحيث ينقضّ القلب على الخصم ، فى حين يطوِّقه الجناحان ، فتضطرب صفوفه ، وترتبك قياداته ، من فرط المفاجأة وعنف الهجوم الجانبى ..

ولأوَّل مرة عبر التاريخ ، ابتكر (تحتمس الثالث) ما يعرف باسم (الحرب الخاطفة) ، وهذا بشن هجمات سريعة وقصيرة ومفاجئة على العدو ، من اتجاهات مختلفة ، وفى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار ..

وأدرك خصوم (تحتمس الثالث) أنهم أمام قائد رهيب ، لا قبل لهم بمواجهته عسكريًّا ، وخاصة مع توالى انتصاراته ، لذا فقد فكَّر أحد قادتهم فى خدعة جديدة ومبتكرة - فى ذلك الحين - ويعتبرها الخبراء أوَّل لمحة للحرب النفسية عبر التاريخ ..

ففى معركة (مجدو) ، أشهر المعارك التى خاضتها جيوش (تحتمس الثالث) ، كانت كل الخيول ، التى تجر عرباته الحربية ، من الذكور ؛ نظرًا لأن الذكر فى الخيل أكثر قوة ، وأكثر احتمالا ، وأقدر على مواجهة القتال واضطرابات الحروب ..

لذا فقد أطلق قائد الأعداء فريسة أنثى ، وسط خيول العربات

الحربية ؛ حتى يشيع فيها الاضطراب ، فتتقاتل فيما بينها ، وتثير قلق الجنود وتوترهم ..

ولكن قائد جيوش (تحتمس الثالث) وهو (أمنحتب الثالث) فهم الخدعة على الفور ، وما إن اقتربت الفرسة من المعسكر ، حتى انقض عليها ، وبقر بطنها ، وأفسد خطة العدو كلها ..

وسجَّل التاريخ الواقعة ..

وبدأت الحروب النفسية ..

وعبر التاريخ ، نجد عشرات من الأمثلة ، على تلك الحروب النفسية ، وأثرها فى تغيير خط سير المعارك ..

ومن أشهر ما حدث فى الحروب ، وبالذات عندما ينقضَ الجيشان بعضهما على البعض ، ويختلط الحابل بالنابل ، هو أن يصرخ بعضهم ، مدعيًا أن قائد الجيش الخصم قد لقى مصرعه ..

تلك الصرخة كانت تشيع الفوضى والاضطراب بين الجنود ، وتربكهم على نحو يسمح لجيش الخصم بالانقضاض على قلبهم ، وضربهم فى مقتل ..

أيضًا كان الجنود قديمًا يربطون أغصان الأشجار ، فى ذيول الخيول ؛ لكى تثير خلفهم عاصفة هائلة من الغبار ، توحى بأن عددهم يفوق واقعهم بعدة مرات .

وفى فتح (مكةَ) عندما أمر (خالد بن الوليد) جنوده بأن يشعل كل منهم نارًا ، كانت هذه عبقرية من عبقريات الحرب النفسية ..

فالمعتاد ، عندما يهبط الليل ، أن تشعل كل مجموعة من الجنود نارًا ، وتلتف المجموعة كلها حولها ، وكان من المعتاد أن يحصى الطرف الآخر النار ، ويضرب عددها فى متوسِّط كل مجموعة تلتف حولها ، ليعرف تعداد جيش الخصم تقريبًا ..

وعندما رأى أهل (مكةَ) تلك النيران ، تصوَّروا أنه هناك مجموعةً من الجند ، تلتفَّ حول كل نار ، مما أوحى إليهم بأن الجيش هائل الحجم على نحو لا قبل لهم به ..

المغول والتتار أيضًا كانت لهم سياستهم فى الحرب النفسية ، ففى كل مرة ، وقبل وصولهم إلى بلد ما ، كان جواسيسهم يسبقونهم إليها ، وهم يتحدثون لغة أهلها ، ويرتدون ثيابهم ، أو ثياب بلد آخر صديق ..

وفى الأسواق ، كان الجواسيس يتحدثون عن الجيوش القادمة ..

عن أعدادها الهائلة ..

وقدراتها المخيفة ..

وضخامة جنودها ..

ومهارتهم ..

وقوتهم ..

والناس فى الأسواق تسمع ..

وتُصدّق ..

وترتجف ..

ومن ألسنة هؤلاء الناس ومخاوفهم ، تنتقل تلك الدعاية المغرضة إلى آذان وقلوب الجنود والجيوش ..

وعندما تلتقى الجيوش ، يكون المغول أو التتار فى أوج قوتهم ووحشيتهم ، وخصومهم خائفون ، إلى درجة توحى بأنهم قد انهزموا فعليًا ، قبل حتى أن يبدأ القتال ..

وهذه هى الحرب النفسية الحقيقية ..

الحرب التى تُحطِّم معنويات خصمك ونفسيته ، قبل أن ترفع سلاحك فى وجهه ..

بل وقبل حتى أن يرى هذا السلاح ، أو يدرك قوته ..

وهذا الجزء من الحرب النفسية هو ما يطلق عليه اسم (حرب الترهيب) ..

أو هى الحرب ، التى تثير الخوف فى أعماق الخصم ، وترهب كل ذرة فى كيانه ..

ولكنْ هناك حرب نفسية من نوع معكوس تمامًا ..

أو هى (حرب الترغيب) ..

وأشهر مثال يمكن أن نطرحه ، لذلك النوع الثانى من الحروب ، هو ما فعله القائد الفرنسى (نابليون بونابرت) عندما بدأ الحملة الفرنسية على (مصر) (١٧٩٨ ـ ١٨٠١م) ، فقد حاول اجتذاب المصريين إلى صفه ، بأن أعلن أنه إنما جاء كمسلم ، لحماية الإسلام والمسلمين ، وإنقاذ المصريين من جبروت وتعنت المماليك ..

ومن المعتاد ، ألا يعتمد فريق ما على (حرب الترغيب) وحدها ، دون لمحة أو لمحات تجاورها ، من (حرب الترهيب) ..

وتذكّروا أن (نابليون) قد أرفق كلماته السابقة ، باستعراض لقوة جيشه ، ومدافعه التى أرهبت المماليك ، وكانت بالنسبة للمصريين أشبه بالقنبلة الذرية فى عصورنا هذه ، كما رآها العالم ، عام ١٩٤٥م ..

وفى عالم الواقع ، يستحيل دائمًا أن يستخدم نوع واحد من الحربين ، خلال زمن الحروب ، أو حتى فى فترات السلم ، ولكن الفترات الهادئة ترتبط دوما بسياسة الترغيب ، بأكثر مما ترتبط بسياسة الترهيب ، وما يحدث حولنا ، منذ عقدين من الزمن ، هو ذروة الحرب النفسية الترغيبية ، والتى اعتمدت على إبهار الشعوب العربية بنمط الحياة الاستهلاكية الأمريكية ، بحيث تصوَّر البعض أن (أمريكا) هى جنة اللّه فى الأرض ، بل ولقد تجاوز البعض هذا ، إلى تعليق العلم الأمريكى على سيارته ، أو إبرازه على صدر ثيابه ، أو فى التشبه بالأمريكيين ، فى الزى ، واللهجة ، واللغة ، وأسلوب الحياة أيضًا ..

وبدون أى تعنتات ، يعتّبر خبراء الحرب النفسية ، أن أولئك المتأمركين ، هم أضعف الكل ، إذ إن انعدام إحساسهم بالشخصية المستقلة لذواتهم ، وعدم ثقتهم بأنفسهم ، أو احترامهم لها ، يدفعهم للتشبه بنمط آخر ، على نحو يمسخ كيانهم كله ،

فينسلخون من عروبتهم ، دون أن يصبحوا بالفعل كمن يتشبهون بهم ..

باختصار ، يرقصون على السلم ..

وعلى هامش الحياة أيضًا ..

أما فى زمن الحروب ، فالغلبة طبعًا لأسلوب الترهيب ، الذى يبالغ بشدة فى قوة الأسلحة ..

ودقتها .

وقدرتها المدهشة على إصابة الهدف ..

وعندما فجَّرت الولايات المتحدة الأمريكية قنبلتها الذرية الأولى ، فى مدينة (هيروشيما) اليابانية ، فى أغسطس ١٩٤٥ ، لم تكن تضع نهاية للحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م) وإنما بداية لحرب إرهابية نفسية ، تهدف إلى إعلام العالم كله أنه لديها سلاح لا قبل لأحد به ، وأنها قد أصبحت سيدة الدنيا بلا منازع ..

ولكن الحكمة الإلهية تقتضى ألا تنفرد قوة ما بالسيطرة على العالم أبدًا ..

لذا ، فقد امتلكت (روسيا) القنبلة الذرية أيضًا ..

وانعكست الحرب النفسية على الأمريكيين ، الذين أصابتهم عقدة الحرب النووية ، وحمى بناء المخابئ ، والكوابيس ، والانهيارات العصبية المستمرة ..

وأساليب الحرب النفسية عديدة ومتعددة ، وتتطوّر دومًا ، مع تطوّر وسائل الإعلام والاتصال ، فمن روايات وحكايات الجواسيس فى الأسواق ، إلى إلقاء المنشورات بالطائرات ، إلى حرب الإذاعات وشاشات السينما والتليفزيون ، إلى ما وصلنا إليه الآن ، من قنوات فضائية مفتوحة ، وشبكات إنترنت ، وهواتف للاتصالات الدولية ..

وكل هذا يعتمد على الدعاية ..

وكلمة الدعاية هنا ، تشمل كل ما يتم ترديده ، عبر كل الوسائل سالفة الذكر ؛ للتأثير على الخصم ، وتحطيم روحه المعنوية ..

وعلى الرغم من اختلاف الوسائل ، تنقسم الدعاية فى مضمونها وتأثيرها إلى نوعين كبيرين فحسب ، وإلى ثلاث فئات مختلفة ، وفقًا لمصدر إطلاقها ، و ..

وهذا ما سنتحدث عنه ، فى الكتاب القادم بإذن الله ..

وبالتفصيل .

* * *

ماذا تقترح ؟!

صديقى القارئ ..

هذه السلسلة غير تقليدية ..

إنها أوّل سلسلة ، فى العالم العربى ، تقدّم لك أسرار عالم الأسرار ..

أوّل سلسلة باللغة العربية ، تكشف أمامك ، غموض أقوى عالم ..

عالم الجاسوسية ..

ولكى تظل السلسلة غير تقليدية ، فلابد أن تشاركنا فيها برأيك ..

باقتراحك ..

بمفهومك ..

أخبرنا ، ما الذى أعجبك أكثر فيها ؟!



أى جزء منها أثار اهتمامك وانتباهك ؟!

وما الذى تقترح إضافته إليها ؟!

موسوعة الجاسوسية ؟!

سينما الجاسوسية ؟!

تاريخ الجاسوسية ؟!

مشاهير عالم الجاسوسية ؟!

أم ماذا ؟!

اقترح ..

وسندرس اقتراحك ، و ....

وربما يجعلنا هذا أفضل ، إن شاء الله (العلى القدير)

د. نبيل فاروق

١ ـ بلا هوية ..

● لم تكن أشعة الشمس قد أشرقت بعد ، على العاصمة الأمريكية (واشنطن) ، في تلك الفترة من أوائل خمسينات القرن العشرين ، عندما توقفت ثلاث سيارات تابعة للمخابرات المركزية الأمريكية ، في ذلك الحي الراقي الهادئ من المدينة ، وهبط منها خمسة عشر رجلاً ، يحمل كل منهم مسدسًا قويًا ، وانتشروا بسرعة تشف عن الخبرة والمرونة ، حول بناية أنيقة من ثلاثة طوابق ، وهم ينتظرون إشارة من رئيسهم ، الذى وصل فى سيارة رابعة ، هبط منها فى سرعة ورشاقة ، وهو يقول فى حزم صارم :

ـ الآن .

فور إشارته وقوله ، انطلق الرجال يقتحمون المبنى ، فى قوة وبراعة ..

وصمت أيضًا ..

كانوا فريقًا خاصًا للغاية ، مدرَّب على الاقتحام والسيطرة ، على يد خبراء ألمان ، تم جلبهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، بعد هزيمة (ألمانيا) النازية ، فى الحرب العالمية الثانية ..

وكانت مهمتهم محدودة تمامًا ..

والمدهش أن هذه المهمة كانت تقتصر على اعتقال رجل واحد ..

رجل تؤكِّد كل ملفاته ، وكل المعلومات التى تم جمعها عنه ، أنه لم يطلق رصاصة واحدة فى حياته ..

بل ولم يحمل قط أية أسلحة نارية ..

وعلى الرغم من هذا ، فقد كان ذلك الرجل جاسوسًا لم يشهد عالم الجاسوسية ، فى تاريخه كله ، من هو أكثر خبرة وبراعة منه ..

وفى اهتمام مشوب بالتوتر ، راح قائد فريق الرجال يراقب عملية الاقتحام ، وهو يتحدَّث عبر جهاز اتصال لاسلكى ضخم ، من الأجهزة التى كانت متوفرة فى ذلك الحين ، قائلاً لآخر فى حزم :

ـ يبدو أننا قد أوقعنا به يا سيِّدى .

أجابه الآخر ، عبر الجهاز نفسه ، فى عصبية واضحة :

ـ إننى أبغض مصطلح (يبدو) هذا يا (مايكل) .. إما أن تلقى القبض عليه فعليًا ، أو تقول : إنك لم تفعل بعد .

عضّ (مايكل) شفتيه فى حنق ، والتقط نفسًا عميقًا ؛ ليسيطر على أعصابه ، قبل أن يجيب :

ـ إننا فى سبيلنا إلى هذا يا سيِّد (سام) .

أجابه رجل المخابرات (سام) فى خشونة :

ـ أبلغنى عندما يقع فى قبضتكم فعليًا .

غمغم (مايكل) :

ـ إنها مسألة وقت فحسب يا سيِّد (سام) .

أجابه (سام) ، فى لهجة يغلب عليها الغضب والسخط :

ـ حقًّا ؟!

ثم أنهى المحادثة فى عنف ، كما لو أنه يعتقد أن كل ما يحدث مجرَّد عبث ..

ولقد أحنق هذا (مايكل) بشدة ، فلوَّح بيده ، قائلاً فى حدة ، على الرغم من خفوت صوته :

ـ أريده حيًّا .

كان معظم رجاله داخل المبنى بالفعل ، يقتحمون منزل الهدف ، باستثناء مجموعة أحاطت بالمبنى من الخارج ،

إحاطة السوار بالمعصم ، فى تحفز تام ، وعلى نحو يوحى بأن ذلك الشخص ، الذى أتوا من أجله ، شخص خطير للغاية ، وأن الأوامر الصادرة تحتم الإيقاع به واعتقاله ..

وبأى ثمن ..

فعلى الرغم من الأوامر الصارمة المشدَّدة ، التى تطلب إنهاء العملية بأكبر قدر ممكن ، من الحسم والهدوء ، بدأت ضجة محدودة ترتفع من المكان ، مما جعل (مايكل) يتساءل فى عصبية :

ـ ألم يوقعوا به بعد ؟!

لم تكد عبارته تكتمل ، حتى شاهد مساعده يغادر المبنى ، ويتجه نحوه مباشرة ، بوجه شاحب ممتقع ، ولمطار من العرق تغمر وجهه ، مع برودة الطقس ، فى تلك الساعة المبكرة ، فهتف به فى عصبية ، لم يستطع أو يحاول إخفاءها :

ـ هل ظفرتم به ؟!

خُيِّل إليه أن وجه الرجل قد ازداد امتقاعًا وشحوبًا ، وهو يهزّ رأسه فى توتر ، مجيبًا :

ـ لم نعثر له على أدنى أثر .

انتقل امتقاع الرجل إلى (مايكل) ، الذى أصابه الجواب بصدمة عنيفة ، جعلته يصرخ فى ذعر مستنكر :

ـ لم تعثروا على ماذا ؟!

ومع صرخته ، قفز من أعماقه سؤال مفزع ..

كيف سيبلغ رئيسه بفرار الهدف ، قبل أن يظفروا به ؟!

كيف ؟!

ومع توتره وعصبيته ، تلفّت حوله فى حدة ، وكأنما يتوقّع رؤية الهدف ، وهو يعدو هنا أو هناك ..

وبنفس التوتر والعصبية ، التقط من جيبه ذلك الأمر الرسمى ، باعتقال الرجل ، ولوّح به ، هاتفًا :

ـ إنها ليست نهاية المطاف .. انتشروا فى المنطقة ، وابحثوا عنه فى كل مكان .. لا تسمحوا له بالفرار أبدًا .

أطاع الرجال أوامره ، وانتشروا على نحو منظّم مدروس ، فى شكلٍ دائرة متزايدة الاتساع ، للبحث عن الهدف ، فى حين تطلّع (مايكل) إلى الورقة فى يده ، وهو يقول بنفس التوتر والعصبية :

ـ لن تفلت هذه المرة .. لن تفلت أبدًا .

نطقها فى مقت واضح ، وكأنما يحمل فى أعماقه ثأرًا شخصيًا ، تجاه صاحب الصورة الملصقة بالأمر الرسمى ، والذى يبدو فى منتصف الأربعينات من عمره ، وإلى جوار الصورة كان الاسم مدونًا فى وضوح ..

(جون كوبرن) ..

ولكن (مايكل) كان يعرف جيدًا ، كما يعرف رؤساؤه ، أن هذا ليس اسم الرجل الحقيقى ..

ويعرف كما يعرفون أيضًا أنه ليس أمريكيًا ..

ولكنه مثلهم ، لا يعرف اسمه الحقيقى ..

أو جنسيته ..

أو أى شىء واضح عن هويته الحقيقية ..

كلهم لا يعرفون شيئًا عنه ..

على الإطلاق ..

* * *

غنى عن القول أن نشير هنا إلى أن رجال المخابرات المركزية الأمريكية قد قلبوا (واشنطن) كلها رأسًا على

عقب ، بحثًا عن ذلك الجاسوس الغامض ، دون أن يعثروا له على أدنى أثر ..

ولأن الأمر كان أخطر من أن يتمّ تجاوزه ، فقد امتدّت دائرة البحث بطول الشاطئ الشرقى للقارة الأمريكية ، ثم تجاوزتها إلى الغرب ..

باختصار ، كل شبر أمكنهم الوصول إليه ، قلبوه رأسًا على عقب ، دون أن يظفروا بأثر واحد ، أو طرف خيط رفيع ، يمكنهم الاستعانة به ؛ للوصول إلى هدفهم العجيب ، الذى أثبت ، خلال ثلاثة أسابيع من البحث الدءوب ، أنه يستحق عن جدارة تلك الشهرة ، التى فاقت الآفاق ، باعتباره أكبر لغز عرفه عالم الجاسوسية ، منذ ابتدعه الفراعنة القدامى ، وحتى يومنا هذا ..

وفى توتر بالغ ، اجتمع مسئول مكافحة الجاسوسية (سام برودريك) بمساعده (مايكل جوريل) ، وبدا شديد العصبية ، وهو يقول :

ـ من المستحيل أن يحدث هذا !

كيف يمكن أن يختفى شخص هكذا ، دون أن يترك أدنى أثر ؟! لقد كان يعمل لحسابنا ، ولدينا ملف كامل عنه ،

يحوى صورته ، وبصماته ، وكل تفاصيل حياته ، فكيف نفشل فى العثور عليه ، بعد كل هذا .

صمت (مايكل) بضع لحظات ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ لقد راجعت ذلك الملف أمس ، للمرة الخامسة ، بعد أن فشلت فى العثور على صاحبه تمامًا ، و...

بتر عبارته دفعة واحدة ، وامتلأت نفسه وملامحه بتردُّد بالغ ، جعل (سام) يستحثه ، قائلاً فى عصبية :

ـ وماذا ؟!

ازدرد (مايكل) لعابه فى صعوبة ، قبل أن يندفع قائلاً :

ـ وفوجئت بأن كل بياناته زائفة .. تمامًا .

وتفجّرت عبارته فى أذنى (سام) ، كألف ألف قنبلة ..

ففى جهاز مثل المخابرات الأمريكية ، تعتبر معلومة كهذه كارثة ..

كارثة بلا حدود .

* * *

٢ ـ رحلة البحث ..

* من المؤكَّد ، وفقًا للوثائق ، أن أسوأ موقف واجهته المخابرات المركزية الأمريكية ، منذ مولدها ، بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، كان اكتشاف عملية تزوير وتزييف بيانات تلك الجاسوس الغامض ، الذى عرفوه باسم (جون كوبرن) ..

فباستثناء صورته ، لم تكن هناك معلومة واحدة حقيقية ، فى الملف السرى الخاص به ، والمفترض أنه محفوظ تحت درجة من السرية ، فى قسم وثائق العملاء ، فى أعمق أعماق خزائن المخابرات !!

ولأن الأمر ـ علَى هذا النحو ـ لايحتمل الإخفاء أو التهوين ، فقد تم عقد اجتماع عاجل ومحدود ، يضمّ مدير المخابرات المركزية ، و(سام برودريك) ، و(مايكل جوريل) ، فى مكتب الأوّل ، وتحت أقصى درجات التأمين والسرية ، حيث تفجّر السؤال الرئيسى المخيف ..

كيف ؟!

كيف يمكن أن يحدث هذا ، داخل قلعة يفترض مناعتها ؛ مثل مبنى المخابرات المركزية الأمريكية ؟!

وفى خزى واضح ، أجاب (مايكل) :

ـ من الجلى أن عملية تزييف البيانات هذه لم تحدث قريبًا ، ولابعد اختفاء (كوبرن) ، وإنما حدثت ، كما يؤكّد الخبراء ، بعد عمل الملف بأيام قليلة ، وربما قبل حفظه فى قسم الوثائق .

بدا المدير شديد التوتر والعصبية ، وهو يقول :

ـ إذن فقد كان يدرك أن أمره سينكشف يومًا ، ولقد استعدّ لكل الاحتمالات ، حتى لايمكننا العثور عليه .

اندفع (سام) يقول فى حدة :

ـ بل الأمر أكثر خطورة من هذا ، فبعد دراسة عميقة ، تبين لنا أن الفرصة الوحيدة ؛ لتبديل بيانات الملف ، كانت فى أثناء وجوده فى قسم المراجعة ، وبالتحديد بعد الانتهاء من مراجعة بياناته ، وقبيل نقلها إلى قسم الوثائق والملفات السرية مباشرة ، والمدهش أن الملفات يتم حفظها ، فى تلك المرحلة ، داخل خزانة منيعة ، ذات أرقام سرية ، فى قسم المراجعة ، ووصوله إليها يعنى أنه قد اخترق ثلاثة نظم أمنية على الأقل ، وتعامل مع خزانة ، كنا نظنها منيعة كالحصن الحصين .

ثم التقط نفسًا عميقًا ، بعد أن أرهقه انفعاله الزائد ، قبل أن يضيف ، في عصبية بلا حدود :

ـ باختصار .. نحن أمام رجل غير عادى ، مما يضع أمامنا احتمالاً أكثر خطورة .

سأله المدير فى حذر متوتر :

ـ مثل ماذا ؟!

مال (سام) نحوه ، وهو يجيب ، بلهجة حملت كل انفعالاته :

ـ أن يكون جاسوسًا سوفيتيًا فوق العادة .

وعلى الرغم من أن المدير كان يتوقَّع مثل هذا الجواب ، إلا أنه لم يكد يسمعه ، حتى انتفض جسده كله فى عنف ، واتسعت عيناه عن آخرهما ، وأصابته صدمة أشبه بالصاعقة ، فانعقد لسانه لدقيقة كاملة ، وهو يحدّق فى وجه (سام) ، قبل أن يتمتم بصوت مختنق :

ـ جاسوس سوفيتى ؟!

تراجع (سام) ، وقال بصوت خافت ، وقد أدرك ما فعلته كلماته بمديره :

ـ إنه مجرَّد احتمال .

رمق (مايكل) (سام) بنظرة متوترة ، ثم قال فى حسم :

ـ والبحث لم يؤكِّد هذا الاحتمال بعد .

اعتدل المدير بحركة حادة ، قائلاً :

ـ ولكنه احتمال وارد ..

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف فى صرامة :

ـ وخطير إلى أقصى حد .

مطّ (مايكل) شفتيه ، وقلب كفيه ، وبدت عليه الحيرة ، وهو يغمغم :

ـ الواقع يا سيِّدى أن ...

لم يستطع إكمال عبارته ، على الرغم من تطلُّع الرجلين إليه فى اهتمام ، فتراجع المدير مرة ثانية فى مقعده ، دون أن يرفع عينيه عن (مايكل) ، ثم أشار إليه بيده ، وهو يقول :

ـ اهدأ يا رجل ، وأخبرنى .. كيف كشفت هذا الأمر فى البداية ؟!

التقط (مايكل) نفسًا عميقًا ، وحاول الاسترخاء فى مقعده ، وهو يلتقط من حقيبته ملفًا صغيرًا ، ويجيب فى اهتمام :

ـ لقد بدأ الأمر كله بصورة .

ارتفع حاجبا المدير ، وهو يكرِّر فى مزيج من الدهشة والاهتمام :

ـ صورة ؟!

فتح (مايكل) الملف ، والتقط منه صورة ، وضعها أمام المدير ، وهو يجيب فى حزم :

ـ نعم .. هذه الصورة .

هبط المدير بعينيه إلى الصورة ، ولم يكد بصره يستقر عليها ، حتى هوت على رأسه صاعقة أكثر عنفًا ، وعاد جسده ينتفض فى قوة ، وهو يحدِّق فى وجه (كوبرن) الذى بدا واضحًا ، على نحو لا يقبل الشك ..

ولكن الواقع أن هذا الانفعال العنيف لم يكن بسبب الوجه فحسب ..

لقد كان بسبب الزى الذى يرتديه فى الصورة ..

والشخص الواقف إلى جواره فيها أيضًا ..

فالزى ، كان زى ضباط الجيش النازى ، أما الشخص الواقف إلى جواره ، فقد كان أخطر شخص عرفه العالم ، منذ سنوات قليلة مضت ..

(هتلر) .. (أدولف هتلر) ..

شخصيًا ..

* * *

لم يغمض جفن لمدير المخابرات الأمريكية المركزية ، فى تلك الليلة ، بعدما سمعه من (مايكل) عن ذلك الرجل ، الذى عرفوه باسم (جون كوبرن) ، والذى عمل لأكثر من عامين كاملين كعميل سرى ، لحساب الجهاز ، وتحت إشرافه ..

فصحيح أنه من الخطير جدًا أن يكون ذلك الرجل جاسوسًا سوفيتيًا ، ولكن من الأكثر خطورة أن يكون أحد النازيين ، أو قادة الحرب الألمان ، الذين انشغلت (أوروبا) كلها بالبحث عنهم وتعقُّبهم واصطيادهم ، منذ وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، وحتى تلك اللحظة ..

وفى توتر بالغ ، وعلى الرغم من أن عقارب الساعة قد تجاوزت الثانية صباحًا ، إلا أنه نهض من فراشه ، متجاهلاً اعتراضات زوجته ، وارتدى ثيابه ، ثم اتصل برجليه (سام) و(مايكل) ، وطلب منهما موافاته فى مكتبه فورًا .

ولم يعترض أيهما ، أو يناقش الأمر لحظة واحدة ؛ لأنهما

يدركان دوافعه، التى لاتختلف قط عن دوافعهما، فلم تمض نصف ساعة، حتى كان ثلاثتهم فى مكتبه، وهو يقول فى عصبية:

ـ إننى لم أستطع النوم لحظة واحدة الليلة، فقد ظلّ ذهنى يدرس الموقف، ويقلّبه على كل الوجوه.. إننا أمام احتمالين، لا ثالث لهما، فإما أن يكون ذلك الرجل نازيًّا قديمًا، نجح فى إخفاء شخصيته، أو لا يكون كذلك، و...

تنحنح (مايكل) فجأة فى توتر، فسأله المدير فى عصبية أكثر:

ـ ماذا هناك.

أشار (مايكل) بيده، قائلاً:

ـ لقد راجعت كل ملفات ضباط النازى، الذين كانوا يحملون الرتبة التى يرتديها فى الصورة، فى تلك الفترة، ولكن هذا زاد من حيرتى وارتباكى بالفعل.

سأله المدير، وهو يشعر بقبضة باردة تعتصر صدره:

ـ ولماذا؟!

أشار (مايكل) بيده مرة أخرى، وهو يقول:

ـ لم يكن بينهم حتى من يشبهه.

تراجع المدير بدهشة حقيقية، وهو يهتف:

ـ مطلقًا؟!

أجاب (مايكل) فى حزم، وهو يخرج من ملفه أوراقًا جديدة:

ـ لقد قرّرت إجراء عملية بحث واسعة النطاق، بعد لقائنا فى مكتبك ظهر أمس ياسيّدى.. وعندما أعيانى البحث، فى ملفات قادة وضباط الجيش النازى القدامى، استعنت بأحد رجال المخابرات الألمانية السابقين، الذين نتعامل معهم، وما إن وضعت الصورة أمام عينيه، حتى تعرّفها على الفور، وأكّد لى، على نحو لا يتطرّق إليه الشك، أن صاحب الصورة هو (فريدريش مانهايم)، وأنه كان أحد المقربين بالفعل للفوهلر (أدولف هتلر)، ولكنه لم يكن قط أحد ضباط الجيش.

سأله المدير فى لهفة:

ـ ماذا كان إذن؟!

ازدرد (مايكل) لعابه ، قبل أن يجيب فى حسم :

ـ جاسوسًا .

وكانت مفاجأة عنيفة ..

جديدة .

* * *

٣ ـ خدعة ألمانية ..

• كانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة وست وخمسين دقيقة ، عندما دلف رجل المخابرات الألمانى السابق (مارك هيس) إلى حجرة الاجتماعات الخاصة ، فى مبنى المخابرات الأمريكية ، ولقد بدا شديد التوتر ، محتقن الوجه ؛ بسبب استدعائه فى هذه الساعة المبكرة ، لذا فقد كانت أصابعه باردة كالثلج ، وهو يصافح مدير المخابرات ، الذى أشار إلى مقعد بعيد ، قائلاً فى هدوء ، لم يخل من الصرامة والحزم :

ـ اجلس يا سيِّد (هيس) .. واهدأ .. إننا نحتاج إلى معرفة بعض ما لديك من معلومات فحسب .

جلس (هيس) ، على المقعد الذى أشار إليه المدير ، وهو يقول فى توتر ، لم يستطع كبحه أو كبته :

ـ أنا رهن إشارتكم .

تبادل الرجال الثلاثة نظرة صامتة ، قبل أن يسأله (سلم) :

ـ قل لى يا سيِّد (هيس) : هل تعرَّفت حقًّا صاحب هذه الصورة القديمة ؟!

نطقها ، وهو يدفع صورة (هتلر) و(كوبرن) إليه ، فألقى عليها الألمانى نظرة طويلة ، قبل أن يقول فى حسم ، امتزج بتوتره :

ـ بكل تأكيد .

مال المدير إلى الأمام ؛ ليسأله :

ـ وكم تبلغ درجة تأكُدك من شخصيته ؟!

صمت (هيس) ، وهو يزدرد لعابه ، ويدير بصره بين ثلاثتهم ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ مائة فى المائة .

تبادل الرجال الثلاثة نظرة صامتة أخرى ، بدا المدير خلالها شديد التوتر ، قبل أن يسيطر على مشاعره ، ويتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ فليكن يا سيِّد (هيس) .. مادمت واثقًا من هوية ذلك الرجل مائة فى المائة ، فلترو لنا كل ما تعرفه عنه ، من خلال عملك السابق ، فى المخابرات الألمانية .

أومأ (هيس) برأسه ، وغمغم :

ـ إنها قصة طويلة إلى حد ما .

أشار (سام) بيده ، وهو يقول فى حزم :

ـ لا تقلق .. لدينا كل ما يكفى من الوقت .

عاد (هيس) يومئ برأسه ، ثم التقط نفسًا عميقًا ، واستقرَّ فى مقعده ، و...

وبدأ يروى ..

* * *

انتشرت الحماسة للنازية ، على نحو غير طبيعى ، فى تلك الفترة من أواخر ثلاثينات القرن العشرين ، مع تلك الأزمة الاقتصادية العالمية ، والحلم الوردى المفعم بالحماسة والأمل ، الذى حملته تلك الفكرة الجديدة ..

ومع صعود نجم (أدولف هتلر) ، بدأ ملايين الشباب ، فى معظم بلدان (أوروبا) ، يعتبرونه المثل الأعلى ، والرمز الكبير للقوة ، والتقدُّم ، والتميُّز ..

وفى (ألمانيا) نفسها ، ظهر المئات ، ممن تبنوا المبادئ النازية ، واشتعلوا بها ، والتهبوا بحماستها ، وراحوا يقودون الباقين إلى ما يسعى إليه (هتلر) ، من تمهيد الساحة للحرب القادمة ، التى يعتزم بها السيطرة على (أوروبا) ، ثم العالم كله فيما بعد ..

ومن بين هؤلاء ، كان (فريدريش مانهايم) ..

كان شابًا حماسيًا ، يهتف للنازية ، ربما بمبالغة تفوق الوصف ، ولكنها نجحت فى لفت أنظار قيادات الحزب إليه ، حتى تبوأ منصبًا قياديًا فيه ، مع أواخر الثلاثينات ، وقبيل شهر واحد من بدء المعمعة الكبرى ..

وعندما اندلعت الحرب ، ومع استعادة (النمسا) ، أبدى ذلك الشاب المتحمس نشاطًا غير عادى ، وإيمانًا يفوق المعتاد ، بأهداف الحزب النازى ، وقياداته ، وزعيمه (هتلر) ، حتى إن هذا الأخير قد شعر بالإعجاب ، وطلب جلبه إلى مقره الخاص فى (برلين) ..

وكعادة الفوهلر ، لم يعرف أحد بالتحديد ما الذى دار بينه وبين (مانهايم) ، ولكن اللقاء انتهى على نحو طيب بالتأكيد ، فقد ربّت (هتلر) على كتفه ، قبل أن يصافحه مودّعًا ، وكانت هذه علامة على الرضا ، كل الرضا ، من زعيم (ألمانيا) النازية الأكبر ..

وعلى الرغم مما يوحى به الموقف ، من ثبات قدمى (مانهايم) ، فى أساسات الحزب النازى ، يعد أمر كهذا ، إلا أن كل من يتوقّع هذا لا بد أن يعيد حساباته ، بعدما يضع على رأسها اسمًا بالغ الأهمية فى تلك الفترة ، ولا يقل بذرة واحدة عن أهمية (هتلر) نفسه ..

اسم (هملر) .. قائد (الجستابو) والمخابرات ..

فبطبيعة عمل (هملر) ، كان عليه أن يتيقّن من هوية أى شخص ، يقترب من الفوهلر أكثر مما ينبغى ..

لذا ، فقد بدأ (هملر) تحرياته من نفس اللحظة ، التى خرج فيها (مانهايم) من حجرة مكتب (هتلر) الخاصة ..

وكإجراء روتينى ، راح رجال المخابرات الألمانية يراجعون كل ما لديهم ، عن (فريدريش مانهايم) ، قيادى الحزب النازى المتحمس ، والذى يمتلكون ملفًا ضخمًا عنه ..

وكان كل شىء على ما يرام ..

وفى التقرير الذى أرسلوه إلى قائدهم ، كان (مانهايم) نازيًّا ممتازًا ، لا غبار عليه ، ولا خطر من وجوده إلى جوار (الفوهلر) ..

ومن بين من أعدّوا ذلك التقرير ، كان (مارك هيس) نفسه ، والذى أدهشه أن يتلقّى من قائده (هملر) تقريرًا سريًّا ، ردًّا على تقرير فحص ملف (مانهايم) ، يطالبه فيه بتعيين رجلين لمراقبة الشاب طوال الوقت ؛ لحين صدور أوامر أخرى ..

ولأن موقع (هيس) لم يكن يسمح له بالمناقشة ، فقد نفذ تعليمات قائده ، وأرسل رجلين لمراقبة (مانهايم) ، طوال الأربع والعشرين ساعة ..

ولم يختلف تقرير الرجلين عن نتائج فحص الملف ...

التزام تام، وإيمان مطلق بمبادئ الحزب، وحماسة شديدة لكل قرار يصدره الفوهلر، الذى بدأ يجتاح (أوروبا) بقواته بلارحمة، محققًا انتصارات ضاعفت من شعبيته وزعامته ..

ومع تلك الانتصارات، وما أعقبها من نشاط جم، فى حركة الجاسوسية، والجاسوسية المضادة، لم يعد هناك وقت أو رجال، لمراقبة أشخاص عاديين، مثل (فريدريش مانهايم)، لذا فقد صدرت الأوامر بسحب المراقبة فورًا ..

ومن المؤكد أن (مانهايم) كان غاية فى البراعة والذكاء، فقد أدرك فورًا أن المراقبة قد انتهت، وأن أحدًا لم يعد يتبعه، أو يحصى عليه حركاته وسكناته، فبدأ تحركاته على الفور، وطلب لقاء الفوهلر شخصيًا؛ لعرض خدماته، وأفكاره الخاصة بتطورات الحرب ..

والعجيب أن (هتلر) قد سمح له بالمقابلة، على الرغم من دقة الموقف حينذاك، بل والتقى به وحدهما لنصف ساعة كاملة، قبل أن يستدعى (هملر)، وترتسم على شفتيه ابتسامة واسعة، وهو يربّت على كتف (مانهايم) مرة أخرى، قائلاً فى حزم وحماسة:

- استعن بهذا الشاب يا (هملر) .. إن لديه بعض الأفكار المدهشة، فى عالم التجسُّس.

ولم يرق هذا لقائد (الجستابو) والمخابرات؛ فهى أول مرة يدفع فيها (الفوهلر) شخصيًا بأحد الرجال إليه، ولكنه، وعلى الرغم من هذا، كان مضطرًا لتنفيذ أوامر الفوهلر على مضض، وضم (فريدريش مانهايم) إلى جهاز المخابرات الألمانى، وهو يسأله فى غيظ:

- تُرى ما تلك الأفكار المدهشة، التى بهرت بها الفوهلر؟

ابتسم (مانهايم) فى هدوء، وهو يجيب:

- لست أظنها مدهشة إلى هذا الحد.

ثم راح يروى ما لديه، ويطرح أفكاره، على أذنى عبقرى المخابرات الألمانى الشهير ..

وانبهر الرجل بالفعل ..

فالشاب كان لديه فيض من الأفكار والمعلومات، التى تشفّ عن عبقرية مبدعة فى هذا المضمار، حتى إنه لم يكد ينتهى مما لديه، حتى قال (هملر) فى حزم:

- لو أنك تجيد بعض اللغات الأوروبية، فسنستعين بك فى عملية قريبة.

أجابه الشاب ، فى هدوء وحزم :

ـ إننى أجيد ست لغات أوروبية ، بخلاف الألمانية .

وهكذا تقرَّر إرسال (فريدريش مانهايم) إلى (انجلترا) ، فى مهمة خاصة بجمع المعلومات والتجسُّس ، وتم منحه رتبة كولونيل ، قدمها له الفوهلر بنفسه ، فى الصورة التى عثر عليها (مايكل) ..

وسافر (مانهايم) بالفعل إلى (لندن) ، ولم يكد يبلغها ، عن طريق (بازل) فى (سويسرا) ، حتى أجرى اتصالاً مباشرًا ، مع آخر جهة يمكن أن تخطر ببال (هملر) ورجاله ..

بالمخابرات البريطانية ..

مباشرة .

* * *

٤ ـ المكتب السادس ..

• خيم وجوم ثقيل على حجرة الاجتماعات الخاصة ، فى مبنى المخابرات المركزية الأمريكية ، والرجال الثلاثة يحدقون فى وجه (هيس) ، رجل المخابرات الألمانى السابق ، قبل أن يتراجع مدير المخابرات فى مقعده ، ويسأله فى اهتمام :

ـ هل كان يعمل لحساب البريطانيين ؟!

التقط (هيس) نفسًا عميقًا ، وقلب كفه ، وهو يقول :

ـ هذا ما تصوَّرناه ، عندما بلغنا الأمر فى البداية ، ولكن القائد (هملر) كان له رأى آخر .

سأله (سام) :

ـ أى رأى هذا ؟!

أجاب (هيس) فى سرعة :

ـ أن (مانهايم) يخدع البريطانيين .

سأل (مايكل) فى دهشة :

ـ يخدعهم بذهابه إليهم مباشرة ؟!

أومأ (هيس) برأسه ، إيجابًا ، قبل أن يقول :

ـ نعم ، فالخطة التى ذهب بسببها (مانهايم) إلى (إنجلترا) ، كانت التظاهر بأنه نازى منشق ، يسعى للعمل لحسابهم .

قال المدير فى حدة :

ـ هذا لا يعنى إنه يتصل بهم مباشرة .

هزّ (هيس) كتفيه ، وقال :

ـ هذا أدهش الجميع فى الواقع ، حتى (هملر) نفسه ، ولكننى علمت فيما بعد ، أن الفوهلر لم يكد يسمع ما حدث ، حتى قهقه ضاحكًا ، وقال فى إعجاب : « ألم أقل لكم إن لدى ذلك الشاب أفكارًا مدهشة ؟! »

تبادل الرجال الثلاثة نظرة شك حذرة ، ثم قال (مايكل) :

ـ ولكن هذا غير منطقى ، فلو أتى سوفيتى إلينا الآن ، وقال : إنه شيوعى منشق ، ويرغب فى العمل لحسابنا ، سنتعامل معه بمنتهى الشك والحذر .

أسرع (سام) يقول :

ـ ولكننا لن نضيع الفرصة ، لو أنه يحتلّ موقعًا حساسًا هناك .

انعقد حاجبا (مايكل) بضع لحظات ، وهو يحاول تقييم الموقف من منظوره الشخصى ، قبل أن يغمغم :

ـ بالتأكيد .

أومأ المدير برأسه ، متفهمًا الأمر ، ثم أشار بيده إلى (هيس) ، قائلاً فى حزم يمتزج باللهفة :

ـ هيا .. أكمل يا رجل .

غمغم (هيس) :

ـ كنت أنتظر أوامركم ..

ثم عاد يكمل روايته ..

* * *

لم يكد (مانهايم) يجرى اتصاله بالمخابرات البريطانية ، الخاصة بالجاسوسية خارج الحدود ، والمعروفة باسم (المكتب السادس) أو(M I 6) ، حتى تم تحديد موعد لمقابلته ، فى مكتب تابع للمخابرات ، فى قلب (لندن) ..

ولأن البريطانيين حذرون وبيروقراطيون إلى أقصى حد ، فإن تلك المقابلة قد اندرجت تحت بند السرية المطلقة ،

بحيث لم يعلم مخلوق واحد ، بخلاف المعنيين بالأمر ، بما دار فيها ..

ولكن (مانهايم) لم يغادر ذلك المكان لخمسة أيام كاملة ..

خمسة أيام ، انقطعت خلالها أخباره تمامًا ، ولم يعلم أحد ماذا يحدث له خلالها ، حتى ظهر فجأة فى (سويسرا) ، وهو يستقل القطار ، عائدًا إلى (برلين) ..

وفى (برلين) ، تم استقباله فى حفاوة ، من قبل رجال المخابرات الألمانية ، وكان (هيس) أحد الذين رافقوه إلى مقر الفوهلر مباشرة ، حيث كان بانتظاره القائد (هملر) بنفسه أيضًا ..

ولقد استغرقت تلك المقابلة ثلاث ساعات كاملة ، طلب (هتلر) خلالها عدم إزعاجه ، أيًّا كانت الأسباب ..

ومن الواضح أنها كانت مثمرة للغاية ؛ فمنذ ذلك الحين ، بدأ (فريدريش مانهايم) رحلاته المنتظمة ، من (برلين) إلى (لندن) وبالعكس ، تحت سمع وبصر الطرفين ، المخابرات البريطانية والألمانية ..

باختصار ، كان جاسوسًا مزدوجًا ..

وعلى أعلى درجة من الأهمية والخطورة ..

وانبهر (هملر) ، ومن بعده الفوهلر ، بكم المعلومات التى كان يجلبها (مانهايم) فى كل مرة ، مع رحلة عودته من (لندن) ، وتم إنشاء مكتب كامل ؛ لتحديد المعلومات التى ينبغى مده بها ؛ حتى يكتسب ثقة الجانب البريطانى ، ويواصل عمله وتعاونه معهم بنجاح ..

ورويدًا رويدًا ، راح (مانهايم) يكتسب امتيازات خاصة ، فى جهاز المخابرات الألمانى ، باعتباره درة جواسيسهم ، وأحد أهم رجالهم وعيونهم ، فى قلب (بريطانيا) ، التى اعتبر (هتلر) احتلالها هو هدفه الأسمى ، بعد سقوط (باريس) ..

ولثقته فى عبقريته وذكائه ، كان (هتلر) يستعين برأيه ، فى بعض الأمور الخاصة بتحركات الجيش ، ويعهد إليه أحيانًا بدراسة بعض العمليات المهمة ، على جبهات القتال المختلفة ..

حتى وصلت تلك البرقية الشفرية العاجلة من (لندن) ..

برقية من جاسوس بريطانى ، نجحت المخابرات الألمانية فى تجنيده ، داخل المكتب السادس نفسه ..

برقية تحمل عبارة واحدة ، هوت على رءوس الجميع كالصاعقة ..

« (فريدريش مانهايم) يخدعكم ، ويعمل فعليًا لصالح البريطانيين .. »

لحظتها ، كان (مانهايم) فى مهمة عمل فى (إنجلترا) بالفعل ، ولكن (هملر) استقبل الخبر فى ذهول ، وأسرع يبلغه إلى (هتلر) ، الذى استنكره بشدة فى البداية ، واعتبره مجردَّ حماقة من ذلك الجاسوس البريطانى ، الذى لم يستطع فهم لعبة (مانهايم) العبقرية ..

وهنا ، اقترح (هملر) أمرًا حاسمًا ..

إعادة مراجعة ملف (مانهايم) ..

وبمنتهى الدقة ..

ومع تلك الشكوك الخطيرة ، بدأت عملية مراجعة الملف ، على نحو مختلف تمامًا ، عما حدث فى كل المرات السابقة ..

وكان (هيس) أيضًا أحد الذين أسند إليهم الأمر ..

ولأن (هيس) لم يكن يشعر بالارتياح تجاه (مانهايم) من البداية ، فقد راح يراجع الملف بمنتهى الدقة ، ويتأكَّد من صحة كل حرف منه ، و...

وكانت فى انتظاره مفاجأة ..

مفاجأة مدهشة ..

* * *

توقَّف (هيس) عند هذه النقطة ؛ ليلتقط أنفاسه ، ولكن عبارته الأخيرة كانت قد ألهبت حماسة الرجال الثلاثة ، فهتف به (سام) بمنتهى اللهفة :

- أية مفاجأة تلك ؟!

هزَّ (هيس) رأسه ، وأجاب :

- إن تاريخ (مانهايم) لم يبدأ ، إلا منذ أبدى حماسته للمبادئ النازية .

سأله (مايكل) فى حذر :

- ماذا تعنى ؟!

أجاب (هيس) ، وقد تلاشت كل توتراته :

- إننا لم نعثر له على تاريخ سابق لهذا .. لا محل ميلاد ، أو أهل ، أو أقارب ، أو حتى شهادات دراسية سابقة صحيحة .. كل ما حواه ملفه كان زائفًا ، باستثناء صورته .

شهق مدير المخابرات ، قبل أن يهتف :

- أيضًا ؟!

لم يفهم (هيس) ما عناه المدير ، ولكنه أشار بيده ، متابعًا فى حزم :

ـ باختصار وبساطة .. (فريدريش مانهايم) لم يكن له وجود حقيقى، فى تاريخ المدنية الألمانية .. الاسم نفسه كان زائفًا تمامًا .

سأله (سام) :

ـ هل كان يخفى اسمه الحقيقى ؟!

هزّ (هيس) رأسه فى حزم، ثم مال نحوهم، مجيبًا :

ـ بل كان يخفى هويته الحقيقية .

أطلّ تساؤل قلق من عيون ثلاثتهم، فأضاف بمنتهى الحسم :

ـ (فريدريش مانهايم) لم يولد على أرض (ألمانيا)، ولم يكن ألمانيًا .. أبدًا .

وهبطت قلوبهم من هول المفاجأة .

★ ★ ★

٥ ـ البريطانى ..

● نهض رجل المخابرات البريطانى العتيق (ستيوارت)، والذى يحمل لقب (سير) ؛ بسبب منجزاته المدهشة، خلال الحرب العالمية الثانية ؛ ليستقبل (مايكل جوريل)، رجل المخابرات الأمريكى ؛ وليصافحه فى برود إنجليزى تقليدى، مع ابتسامة باهتة، وهو يقول فى حذر تلقائى :

ـ مرحبًا بك فى (لندن) يا مستر (جوريل) .. أبلغونى أنك قد طلبت مقابلتى شخصيًا ؛ بشأن بعض الاستشارات، فى عالم الجاسوسية .

صافحه (مايكل)، وهو يبذل قصارى جهده ليبتسم، قائلاً :

ـ هذا صحيح يا سير (ستيوارت)، فتاريخك فى هذا العالم يعد مرشدًا لنا .

ظلّت ابتسامة سير (ستيوارت) باهتة باردة، وهو يدعوه إلى الجلوس، قائلاً فى لهجة لاتنتمى بأى حال من الأحوال إلى التواضع :

ـ هذا أمر طبيعى ؛ فجهاز مخابراتكم يعد وليدًا حديثًا فى هذا العالم، بالنسبة لجهاز مخابراتنا العريق .

غمغم (مايكل) ، وهو يخفى حنقه :

- بالتأكيد .

جلس الاثنان ، أمام بعضهما ، وغلفهما صمت ثقيل لبضع دقائق ، بدا خلالها وكأن كليهما ينتظر إشارة من الآخر لبدء الحديث ، حتى قال سير (ستيوارت) بهدوئه البارد المستفز :

- حسن .. ماذا هناك ؟!

لم ينبس (مايكل) ببنت شفة ؛ لإجابة تساؤله ، وإنما فتح حقيبته ، والتقط منها ملف (كوبرن) ، وانتزع منه صورة هذا الأخير ؛ ليدفعها أمام سير (ستيوارت) ، فى صمت كامل ..

ولثوان ، تطلّع سير (ستيوارت) إلى الصورة ، دون أن يبدو على ملامحه أى انفعال ، قبل أن يرفع عينيه إلى (مايكل) ، متسائلاً :

- ما المطلوب بالضبط ؟!

ازدرد (مايكل) لعابه ، وهو يسأله فى انفعال ، لم يدر له سببًا لحظتها :

- هل تعرف صاحب هذه الصورة ؟!

أومأ سير (ستيوارت) برأسه إيجابًا ، وهو يقول ، بلهجة خلت من أية انفعالات :

- بالتأكيد .

سرت ارتجافة فى جسد (مايكل) ، وهو يسأل :

- ما اسمه إذن ؟!

صمت سير (ستيوارت) بضع ثوان ، وملامحه الباردة مازالت خالية من أية تعبيرات ، ثم لم يلبث أن قال :

- (جراى) .. (جيمس جراى) ..

كان الجواب مفاجئًا لرجل المخابرات الإنجليزى ، الذى هتف بكل مشاعره :

- (جراى) ؟! أتعنى أنه انجليزى ؟!

أجابه سير (ستيوارت) فى حذر ، وهو يزن كل حرف من كلماته :

- كيف يبدو لك الاسم ؟!

كان جوابًا غير مباشر ، أثار حنق (مايكل) ، فتساءل فى حدة واضحة :

- بمعنى أدق .. هل كان يعمل لحسابكم ؟!

صمت سير (ستيوارت) بضع ثوان أخرى ، قبل أن يجيب :

- إلى حد ما .

وهنا فاض الكيل برجل المخابرات الأمريكى ، الذى ترك وطنه ، وطار لعشر ساعات فوق المحيط ؛ لتعقُّب تلك المعلومة ، ثم ارتطم بذلك الجدار البريطانى الثلجى ، فهتف فى غضب :

- سير (ستيوارت) .. مع احترامى الشديد لتاريخك الطويل ، إلا أن هذا الأمر يمثل بالنسبة لنا أهمية بالغة ، ولقد حملت لك خطابًا من رؤسائك ، يطالبونك فيه بالتعاون معنا ، بقدر المستطاع ، ولقد انتهت الحرب ، ووضعت أوزارها ، منذ بضع سنوات ، ونحن أمام موقف لا يحتمل التهاون أو التأخير ، فهل يمكنك أن تبدى ، ولو قليلاً من التعاطف والتعاون ؟!

لم تحمل ملامح سير (ستيوارت) أية انفعالات ، على الرغم من غضب (مايكل) وثورته ، وإنما ظلّ يتطلّع إلى هذا الأخير لبعض الوقت فى برود ، قبل أن يقول فى هدوء مستفز :

- (جيمس جراى) شاب مغامر ، عمل لبعض الوقت كمراسل صحفى لجريدة (صنداى تايمز) ، وكان يرسل مقالاته من أماكن شتى فى (أوروبا) ، قبل أن يستقر به المقام فى (برلين) ، فى النصف الثانى من الثلاثينات .

سأله (مايكل) فى لهفة :

- وماذا كان يفعل هناك ؟!

هزّ سير (ستيوارت) رأسه ، قائلاً :

- لقد انتحل شخصيةً ألمانيةً ، وراح يرسل إلى جريدته كل بيان أو قرار يصدره الحزب النازى هناك .. بل وانضمّ بهويته الألمانية الزائفة إلى الحزب ، وتقدّم وترقّى فيه ؛ حتى لقد تصوّرنا فى بعض الأوقات أنه يخفى فى أعماقه روحًا نازيةً متعصّبة .

اعتدل (مايكل) فى مقعده ، وهو يسأل فى اهتمام :

- كنتم تتابعون نشاطه إذن .

لوّح الرجل بأصابعه ، قائلاً :

- ليس على النحو الذى تتصوّره ، فقد كان بالنسبة لنا مُجرّد مراسل صحفى غير مستقر ، ولا يمثل خطرًا على

أمننا ، لذا فقد كنا نراجع ما يرسله من تقارير فحسب ، حتى انقطعت أخباره وتقاريره لبعض الوقت ، فتصوَّرنا أنه قد سئم الموقف كله .

صمت لحظة ، ثم تراجع فى مقعده ، وقال فى هدوء ، لم يتفق أبدًا مع عبارته :

ـ ثم كانت المفاجأة !!

هوى قلب (مليكل) بين قدميه ، وهو يتساءل بصوت مبحوح :

ـ أية مفاجأة ؟!

عادت تلك الابتسامة الباهتة إلى شفتى البريطانى ، وهو يقول :

ـ سأخبرك ..

وراح يروى ما لديه ..

* * *

كان يومًا انتشر فيه الضباب ـ كالمعتاد ـ فى العاصمة البريطانية (لندن) ، عندما ارتفع رنين جرس هاتف مكتب (ستيوارت) ، فالتقط سمَّاعته فى آلية ، وقال ببروده الشهير :

ـ ماذا هناك ؟!

أتاه صوت أحد مساعديه ، قائلاً :

ـ سيِّدى .. هناك مراسل صحفى اتصل بمكتبنا الرئيسى ، وطلب تحديد موعد عاجل مع أحد المسئولين .

سأله (ستيوارت) بنفس البرود :

ـ لأى سبب ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ إنه عائد على الفور من (برلين) .

التقى حاجبا (ستيوارت) ، وتوقَّف لثوان قليلة أمام تلك المعلومة الخطيرة ، فى زمن اشتعلت فيه حرب عنيفة ، بين (ألمانيا) و(بريطانيا) ، ثم لم يلبث أن سأل فى هدوء عجيب :

ـ ما اسم ذلك المراسل الصحفى ؟!

أجابه مساعده :

ـ (جراى) .. (جيمس جراى) .

ولم يكد الرجل يذكر الاسم ، وقبل حتى أن تكتمل حروفه ، حتى قال (ستيوارت) :

ـ أحضره إلى مكتبى فورًا .

استغرق وصول (جراى) إلى مكتب (ستيوارت) نصف ساعة ، كان الأخير قد راجع خلالها كل ما يحويه ملف الأوّل بمنتهى الدقة ، قبل أن يستقبله بنفس الهدوء الشهير ، ويصافحه ، قائلاً :

ـ مرحبًا بك فى (لندن) يا مستر (جراى) .. كنا نتصوّر أن الإقامة فى (برلين) قد راقت لك .

وبدلاً من أن ينفى (جراى) هذا أو يستنكره ، ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة ، وقال فى بساطة :

ـ هذا أمر طبيعى ، فأنا أحتل هناك منصبًا ممتازًا الآن .

ثم جلس ، وتطلّع إلى عينى (ستيوارت) مباشرة ، مكملاً :

ـ فى المخابرات الألمانية .

ولأوّل مرة فى حياته ، لم يستطع (ستيوارت) كتمان دهشته ، التى هشّمت برود ملامحه التقليدى ، واحتلّت ملامحه فى وضوح ، وهو يحدّق فى وجه (جراى) ..

فما قاله ذلك الشاب كان يشفّ عن جرأة مدهشة ..

وبلا حدود .

* * *

٦ ـ مغامر بلا حدود ..

• من الواضح أن جرأة (جراى) ، وأسلوبه المباشر ، قد أربكا البريطانيين ، وأثارا ارتباكهما بشدة ، وعلى نحو غير مسبوق ، فعلى الرغم من تاريخهم الطويل ، فى عالم الجاسوسية ، لم تصادفهم قط حالة كهذه ..

حالة شخص يأتى إليهم بقدميه ؛ ليعلن أنه يعمل لحساب جهاز مخابرات معادٍ ..

ليس كعميل أو جاسوس تقليدى ..

ولكن كضابط ..

ضابط فى مخابرات النازى ..

ولو أن ضابطًا آخر ، فى موضع (ستيوارت) ، واجه هذا الموقف ، لوثب من مقعده ، وسحب مسدسه فى وجه (جراى) ، الذى لم تفارقه ابتسامته لحظة واحدة ، ورجل المخابرات البريطانى يحدّق فى وجهه بدهشة ، قبل أن يستعيد هدوءه الأسطورى ، ويقول :

ـ فليكن .. ماذا تريد منا إذن ؟!

تجاهل (جراى) السؤال تمامًا ، وهو يقول :

ـ المخابرات النازية أرسلتنى إلى هنا لخداعكم ، وإقناعكم بأننى نازى منشق ، يسعى للعمل لحسابكم .

تراجع (ستيوارت) فى مقعده ، وهو يتطلّع إليه فى صمت ، قبل أن يقول بلهجة جديدة ، اخترقت فيها الصرامة بروده الشهير :

ـ وهل تعتقد أن هذا أمر هين ؟!

لم ترق له أبدًا ابتسامة (جراى) ، وهو يقول فى هدوء نافس هدوءه :

ـ أنت تعلم مثلى أن كل شىء ممكن فى هذا العالم .

وصمت لحظة ، ثم أضاف ، وابتسامته تتسع :

ـ لو أنك أدرت اللعبة على نحو سليم !!

تلك العبارة أقلقت (ستيوارت) بشدة ، وبدت بالنسبة له أشبه بتحدٍّ سافر مباشر ، جعله يتطلّع إلى عينى (جراى) لبضع لحظات ، قبل أن يقول فى بطء وهدوء :

ـ بالتأكيد .

قالها ، ومال نحو (جراى) ، مستطردًا فى حزم :

ـ هيا .. هات ما لديك يا مستر (جراى) .. كلى آذان مصغية .

ومنذ تلك اللحظة ، بدأت عملية استجواب وتدريب (جيمس جراى) ؛ للعمل لحساب المخابرات البريطانية ..

وهكذا حظى ذلك الشاب بأمر لم يحظ به غيره ، عبر تاريخ الجاسوسية كله ..

تدرَّب على يد المخابرات النازية ..

وأتقن على يد المخابرات البريطانية ..

ولو أضفنا هذا وذلك إلى ذكائه الشديد ، وعبقريته ، وعشقه للمغامرة ؛ لبرز أمامنا جاسوس لا مثيل له ..

جاسوس مغامر إلى أقصى حد ..

بل مغامر بلا حدود ..

* * *

توقَّف سير (ستيوارت) فى روايته عند هذا الحد ،

وتسلَّلت إلى شفتيه ابتسامة ، وهو يتطلَّع إلى تلك الدهشة المتوترة ، على وجه (مايكل) ، قبل أن يقول :

ـ ماذا هناك بالضبط ؟!

أجابه (مايكل) ، وقد بدت لهجته حادة أكثر مما ينبغى :

ـ إذن فقد سمحتم له بالتعاون معكم !!

قلب سير (ستيوارت) كفه ، قائلاً :

ـ كانت فرصة لا يمكن أن نضيعها .

ثم مال نحوه ، مضيفًا :

ـ ثم إننا أجرينا تحرياتنا عنه .

انتشلت العبارة (مايكل) من توتره ، فهتف فى لهفة :

ـ إذن فقد تأكَّدتم من هويته .

تردَّد سير (ستيوارت) لحظة ، ثم قال :

ـ تحرياتنا توافقت مع ما أخبرنا به ، فهو لقيط مجهول النسب ، نشأ فى دار للرعاية ، تتبع الكنيسة فى (ليفربول) ، ولقد عشق الصحافة والمغامرة ، منذ حداثة أظفاره ، و...

لم ينتظر (مايكل) ، حتى يتمّ سير (ستيوارت) حديثه ، وإنما هتف يقاطعه بكل لهفته ، على الرغم من تعارض هذا مع أدنى حدود وقواعد اللياقة :

ـ إذن فهو إنجليزى ؟!

التقى حاجبا سير (ستيوارت) ، عندما لحقته مقاطعة (مايكل) الفذَّة ، وصمت بضع لحظات ، وكأنما يتعمَّد إثارة سخط الأمريكى ، قبل أن يقول فى هدوء ، متجاوزًا سؤاله تمامًا :

ـ فترة عمله معنا كانت مثمرة للغاية ، فقد كنا نمدّه بكل ما يمكننا من معلومات مدروسة ؛ لاكتساب ثقة النازيين ، وهم كانوا يفعلون المثل معه ، ولكنه كان يضيف كل ما يجمعه هو من معلومات عنهم ، وعن استراتيجياتهم ، وجيوشهم ؛ لينقل إلينا فيضًا مذهلاً من المعلومات ، ساعدنا على الصمود لفترة طويلة .

سأله (مايكل) فى توتر :

ـ ولكن أحد رجال المخابرات النازية القدامى ، أخبرنا أنهم قد كشفوا زيف هويته .

أومأ سير (ستيوارت) برأسه إيجابًا ، وقال فى هدوء :

ـ هذا صحيح .

قال (مايكل) فى حيرة :

ـ ولكنهم لم يظفروا به هناك .

مرة أخرى ابتسم سير (ستيوارت) ، وهو يقول :

ـ لأنه لم يعد إليهم .

سأله (مايكل) وقد تضاعفت حيرته :

ـ ولمــاذا ؟!

هزَّ سير (ستيوارت) رأسه ، وتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ لا يمكننى تفسير هذا بالضبط ، ولكن من الواضح أن ذلك الشاب يمتلك حاسة مدهشة ، تنذره بقرب الخطر ، تمامًا مثل بعض الحيوانات المفترسة ، التى تدرك الخطر قبيل حدوثه .

وصمت لحظة ، ثم استطرد فى اهتمام :

ـ أو أن عبقريته تفوق إدراكنا بمراحل ، بحيث يمكنه أن يدرك ، من أمور وعلامات صغيرة ، أن مرحلة الأمان قد انتهت ، وأن الخطر قد لاح ، وأصبح من الضرورى الانسحاب .. وبأقصى سرعة .

قال (مايكل) فى حماسة :

ـ أو يمتلك الأمرين معًا .

ابتسم سير (ستيوارت) ابتسامته الباهتة ، وهو يقول :

ـ عجبًا ! لهجتك توحى بأنك معجب بذلك الجاسوس .

هزَّ (مايكل) رأسه ، وهو يجيب فى صدق :

ـ ومن يملك غير هذا ؟!

صمت سير (ستيوارت) بضع لحظات ، قبل أن يقول ، وقد استعاد بروده :

ـ ربما الآن ، أما أيامها ، فقد أغضبنى ما فعله بشدة .

ارتفع حاجبا (مايكل) فى دهشة ، وهو يتساءل :

ـ ولماذا يغضبك هذا ؟! ألم يكن يعمل لحسابكم ؟!

أومأ سير (ستيوارت) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بلى ، وكان مخلصًا فى عمله للغاية أيضًا ، ولكن ...

بتر عبارته فى تردُّد واضح ، أشعل لهفة (مايكل) مرة أخرى ، وهو يسأل :

ـ ولكن ماذا ؟!

كان قلبه يشعر أن القصة لم تنته بعد ، لذا فقد أرهف سمعه جيدًا ، وسير (ستيوارت) يقول :

- على الرغم من انتظام عمل (جراى) ، إلا أنه كانت هناك فترات محيّرة ، يختفى فيها من (برلين) ، دون أن يظهر فى (لندن) ، وهذه الفترات كانت تبلغ أسبوعًا أو أسبوعين فى المتوسّط ، مما أثار شكوكى بشأنه ، ودفعنى للذهاب إلى دار الرعاية ، التابعة لتلك الكنيسة فى (ليفربول) ؛ للتحرى عن تاريخه ، على نحو أكثر دقة .

اعتدل (مايكل) فى مقعده بحركة حادة ، وهو يهتف فى انفعال :

- ولم تجد اسم (جيمس جراى) فى سجلاتها .

هزّ البريطانى رأسه ، قائلاً :

- بل وجدته .

كاد (مايكل) يسترخى فى مقعده ، لولا أن مال سير (ستيوارت) نحوه ، وأضاف فى حزم :

- ولكنه لقى مصرعه ، فى الثانية عشرة من عمره .

وانتفض (مايكل) على مقعده ..

بمنتهى العنف .

* * *

٧ - اللغـز ..

● أغمض رجل المخابرات الأمريكى (مايكل جوريل) عينيه ، محاولاً الاسترخاء فى مقعده ، داخل السفينة الفرنسية الأنيقة ، التى تعبر به بحر (المانش) ، وهو يستعيد حديثه مع رجل المخابرات البريطانى سير (ستيوارت) ، فى مكتب هذا الأخير ..

كان سير (ستيوارت) يروى له كيف كشف أن ذلك الجاسوس الغامض ، الذى عرفوه فى المخابرات الأمريكية باسم (جون كوبرن) ، قد انتحل شخصية لقيط بريطانى ، واسمه وهويته ، بعد أن أخفى شهادة وفاته ، وكيف نجح فى استغلال ذلك إلى أقصى حد ، حتى صار يعمل لحساب المخابرات البريطانية والنازية فى آن واحد ..

لحظتها هتف به (مايكل) ، بكل دهشته وتوتره :

- يا للجرأة .. كيف يمكن أن يفعل هذا ، دون أن يطرف له جفن ؟!

أشار سير (ستيوارت) بيده ، قائلاً :

- لقد طرحت على نفسى السؤال ذاته ، وأنا أنتظر ظهوره ، فى أثناء واحدة من فترات اختفائه الغامضة ، ولقد قررت أن

ألقى القبض عليه فور عودته ، ولن أستجوبه ، وأعتصره اعتصارًا ؛ حتى أظفر بالحقيقة كلها .

سأله (مايكل) :

ـ وهل فعلت ؟!

هزّ سير (ستيوارت) رأسه نفيًا ، وقال :

ـ إنه لم يعد أبدًا .

حدّق (مايكل) في وجهه بتلك الدهشة ، مغمغمًا :

ـ تلك العبقرية ؟!

أشار سير (ستيوارت) بسبّابته ، قائلاً :

ـ أو غريزة الشعور بالخطر .

وتراجع في مقعده ، وصمت بضع لحظات ، ثم قال في حزم :

ـ ولكن اختفاءه لم يمنعني من استكمال تحرياتي ، عن فترات اختفائه الغامضة السابقة .

سأله (مايكل) في لهفة :

ـ وهل توصّلت إلى شيء ؟!

مطّ سير (ستيوارت) شفتيه ، وتمتم :

ـ ليس من خلال تحرياتي .

سأله في حيرة :

ـ من خلال ماذا إذن ؟!

ازداد وجه سير (ستيوارت) احمرارًا ، وكأنما يخجل من الإجابة ، ثم لم يلبث أن أشاح بوجهه ، متمتمًا :

ـ بالمصادفة البحتة ؟!

حمل صوتك (مايكل) لمحة من الشماتة ، وهو يقول :

ـ حقًا ؟!

تجاهل سير (ستيوارت) التعليق تمامًا ، وتابع وكأنه لم يسمعه :

ـ كنا قد بدأنا تعاوننا مع الفرنسيين ، استعدادًا لشن حرب التحرير الشاملة ، وكنت على موعد مع (شارل بييه) ، أحد كبار القادة الفرنسيين ، وعلى مكتبي ، تركت صورة للشاب ، وما إن دخل (شارل) إلى مكتبي ، وألقى نظرة عليها ، حتى امتلأ وجهه بابتسامته ، وهو يقول : «من الواضح أنكم

تتابعون حركة المقاومة الفرنسية باهتمام .. » ، وعندما سألته عما يعنيه ، أشار إلى صورة الشاب ، وهو يقول بابتسامة أكبر : « الأمر واضح .. أنت تضع على مكتبك صورة (موريس فرانسوا) .. أحد أبرز زعماء المقاومة فى (باريس) .. » ..

شهق (مايكل) عندئذ ، وكان صوته يشبه الصراخ ، وهو يقول :

ـ فرنسى ؟! أهو فرنسى ؟!

تنهّد سير (ستيوارت) ، وقال :

ـ لقد تصوّرت فى البداية أن (شارل) قد أخطأ تمييز الشاب ، فأطلعته على الصورة أكثر من مرة ، وهو يؤكد فى كل مرة أنها صورة (موريس فرانسوا) ، زعيم المقاومة الفرنسية .

جلس (مايكل) على مقعده شاحبًا ممتقعًا كالموتى ، وهو يردد :

ـ مستحيل ! لايمكن أن يكون بهذه البراعة .

أمال سير (ستيوارت) رأسه ، وهو يقول :

ـ ولكنه كذلك بالفعل .

« (فرنسا) أيها السادة .. » ..

انتزع النداء (مايكل) من ذكرياته القريبة ، ففتح عينيه ، واعتدل فى مجلسه ، والتقط معطفه وحقيبته ، وغادر السفينة على الشاطئ الفرنسى ، حيث استقبله شيخ نحيل ، أشيب الشعر ، منحه ابتسامة كبيرة ، وهو يقول بلغة إنجليزية سليمة :

ـ مسيو (مايكل) .. أنا (بييه) .. (شارل بييه) ، من المخابرات الفرنسية .

صافحه (مايكل) فى حرارة ، وهو يقول :

ـ شكرًا لاهتمامك بمقابلتى يا مسيو (بييه) .. لن أزعجك كثيرًا ، فأنا هنا لمهمة محدودة .

ابتسم (شارل) ، وهو يميل نحوه ، قائلاً :

ـ (موريس فرانسوا) .. أليس كذلك ؟!

أومأ (مايكل) برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ بلى .. أريد منك أن تخبرنى بكل ما تعرفه عنه .

تطلّع إليه (شارل) بضع لحظات فى صمت ، ثم جذبه من ذراعه ، وراحا يسيران جنبًا إلى جنب ، بمحاذاة الشاطئ ، وهو يقول :

- الواقع أنه لا أنا ولا أحد غيرى يعرف الكثير عن (فرانسوا) .. لقد كان واحدًا من زعماء المقاومة الفرنسية ، الذين ظهروا على الساحة ، بعد الاحتلال النازى ، وفى تلك الآونة لم يكن أحد يهتم بأصل الأشخاص والأشياء ، ولكنه كان شابًّا عبقريًّا متميِّزًا ، يتعقَّب النازيين ، ويشن عليهم غارات قوية عنيفة ناجحة .. كان يعرف مواقعهم ، وتحركاتهم ، وسكناتهم ، وحتى ضباطهم ، وكأنه واحد منهم ، وكان شديد الجرأة ، موهوبًا فى القيادة ، حتى لقد خلب لب شباب المقاومة ، وأثار حماستهم ، وأصبح رمزًا لهم .. الشىء الوحيد ، الذى كان يحيِّر الكل ، هو أنه كان يختفى طويلاً ، ثم يظهر فجأة ، ويحمل إليهم الأخبار والذخائر ، من خلف خطوط العدو .. لا أحد يعلم كيف كان يغادر (فرنسا) أو يعود إليها ، أو كيف كان يعرف كل ما يعرفه .. ثم إنه كان يعود فى كل مرة بخطة مدهشة ، يدرسها مع رجاله ، ثم يقودهم فى غارة ناجحة ، تكبِّد النازيين خسائر فادحة ، وتثير غضبهم وجنونهم إلى أقصى حد .

سأله (مايكل) ، وهما يجلسان على مقهى أنيق ، فى مواجهة البحر :

- وماذا بعد تحرير (فرنسا) ؟!

هزَّ (شارل) رأسه ، قائلاً :

- اختفى تمامًا .. لم نعثر له على أدنى أثر ، على الرغم من البحث المستميت عنه ؛ لتكريمه ، باعتباره أحد رموز المقاومة الفرنسية .

وتراجع فى مقعده مبتسمًا ، وهو يضيف :

- أيامها تصوَّر البعض أنه قد لقى مصرعه ، وأكَّد البعض الآخر أنه متواضع أكثر مما ينبغى ؛ بحيث يرفض التكريم والأوسمة ، وأنه لم يفعل ما فعل إلا من أجل (فرنسا) .

سأله (مايكل) :

- وهل بحثتم عن أصله ، بعد أن وضعت الحرب أوزارها ؟!

أومأ (شارل) برأسه إيجابًا ، وقال :

- معظم السجلات دمرتها السلطات النازية ، قبل مغادرتها (باريس) ؛ كوسيلة لإخفاء بيانات الخونة ، الذين تعاونوا معها ، ولكننا راجعنا سجلات المواليد ، والتعميد ، وملفات الموظفين ، والعمال ، وغيرها ..

والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف فى أسف :

- ولكننا لم نجد فرنسيًّا واحدًا ، يمكن أن تنطبق عليه تلك المواصفات .

انعقد حاجبا (مايكل) ، وهو يقول فى عصبية :

ـ إذن فهو ليس فرنسيًا أيضًا .

قبل أن يجيبه (شارل) ، برز أحد معاونيه فجأة ، وناوله مظروفًا مغلقًا ، وهو يهمس فى أذنه بعبارة ما ، فأشار إليه (شارل) بالانصراف ، ثم دفع بالمظروف إلى (مايكل) ، قائلاً :

ـ إنها برقية عاجلة لك ، من المخابرات الأمريكية ، وصلت إلى مكتبنا هنا .

التقط (مايكل) المظروف فى توتر ، وفضه فى سرعة ، ولم يكد يلقى نظرة على الكلمات المكتوبة بشفرة خاصة داخله ، حتى اتسعت عيناه عن آخرهما ، ووثب من مقعده كالمجنون ..

فالعبارة القصيرة ، الواردة فى البرقية المشفَّرة ، كانت تحمل مفاجأة ..

مفاجأة مذهلة .

* * *

٨ ـ الظل الأحمر ..

● لم تكد طائرة (مايكل جوريل) ، رجل المخابرات الأمريكى تهبط فى مطار (واشنطن) ، حتى استقبله رئيسه (سام) ، وهو يقول فى توتر بالغ :

ـ هل رأيت الكارثة ؟!

سأله (مايكل) ، فى لهجة أقرب إلى الذعر ، وهو يتجه معه نحو السيارة ، التى تقف خارج المطار :

ـ ولكن كيف علمتم بهذا الأمر ؟!

أجابه (سام) ، والسيارة تنطلق بهما إلى أحد مقار المخابرات :

ـ موظفة شفرة سوفيتية ، فرَّت من سفارتهم هنا ، ولجأت إلينا لحمايتها ، ومنحها حق اللجوء السياسى ، وحملت معها نسخة من البرقيات الشفرية ، التى تم تبادلها مع (موسكو) ، خلال العامين الماضيين ، مع مجموعة من صور العملاء السوفيت ، فى قلب الكيان الأمريكى .

جف حلق (مايكل) ، وهو يتساءل :

ـ أكان من بينهم .

ودون أن ينبس (سـام) ببنت شـفة ، دسّ يـده فـى جيبه ، وأخرج منه صورة ، ناول زميلـه إياها ، الـذى حدّق فيها بذهول ..

كانت صورة واضحة لذلك الجاسوس ، الذى عمل لديهم ، تحت اسم (جون كوبرن) ، وهو يقف فى الميدان الأحمـر فى (موسكو) ، وإلى جواره أحد ضباط الـ (كى . جى . بى) المعروفين ..

وامتقـع وجـه (مـايكل) ، حتـى نـافس وجـوه الموتـى ، و(سام) يقول :

ـ الوثائق السوفيتية تقول : إن اسمه (ميخائيل بوروفيتش) ، وأنه يعمل مع المخابرات السوفيتية ، منذ عـام ١٩٤١م .. هل يمكنك أن تصدّق هذا ؟!

أطلق (مايكل) زفرةً حارةً طويلة ، وهو يقول :

ـ لو أنـك سـمعت كل ما سمعته أنا ، لأصـبحت مستعدًا لتصديق أى شىء يقال .

هتف (سام) فى حنق :

ـ لقد خدعنا ، طوال عامين كاملين .

غمغم (مايكل) :

ـ لقد خدع الجميع .

وصمت لحظة ، قبل أن يستدير إلى زميله ، مضيفًا :

ـ وربما خدع السوفيت أيضًا .

«ماذا تعنى بقولك هذا ؟!» ..

هتـف مدير المخـابرات الأمريكية بالسؤال ، عندما طـرح (مايكل) الأمر مرة أخرى فى مكتبه ، فالتقط هذا الأخـير نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ أعنى أن ذلك الجاسوس الغامض قد عمـل لحساب الكل ، ونجح فى خداع الكل ، وليس من المستبعد أن يكون قد فعل هذا مع السوفيت أيضًا .

قال (سام) فى حزم :

ـ العكس أيضًا ليس مستبعدًا .

أشار (مايكل) بيديه ، قائلاً :

ـ لو افترضنا أنه يعمـل لحسـاب السـوفيت منـذ البدايـة ، وأنه سوفيتى الأصل ، فما مبرّر تزعمه للمقاومة الفرنسية ، وقيامه بكل تلك الأعمال البطولية ؟!

قال (سام) فى إصرار :

ـ كان ضد النازيين ، وهذا يفيد السوفيت فى كل الأحوال .

هزَّ (مايكل) رأسه ، وهو يقول فى حزم :

ـ الأمور لاتسير على هذا النحو فى الحروب ، ولا حتى فى عالم الجاسوسية والمخابرات ، فتشتيت انتباه العميل يفقده أهميته ، وثبات قدميه فى أرض الخصم ، كما أنه يضاعف من احتمالات الخطأ والخطر ، ويقلِّل من فائدة العميل أيضًا .

تراجع المدير فى مقعده ، قائلاً :

ـ هذا صحيح .

بدت الحيرة على وجه (سام) ، وهو يقول :

ـ ولكن هناك تفسير ما حتمًا .

أجابه (مايكل) فى سرعة :

ـ بالتأكيد .. ولكن هذا يحتاج إلى إجراء إضافى خاص .

سأله المدير فى اهتمام :

ـ مثل ماذا ؟!

ملأ (مايكل) صدره بالهواء ، وقال :

ـ الحصول على تأكيد ، من أحد عملائنا فى (موسكو) .

ألقى عبارته ، فران على حجرة مكتب المدير صمت رهيب ، هزَّ (سام) خلاله رأسه مستنكرًا ، فى حين انعقد حاجبا المدير ، وهو يفكِّر فى عمق ، قبل أن يومئ برأسه ، قائلاً فى حزم وحسم :

ـ فكرة جيِّدة ، وسأضعها موضع التنفيذ على الفور .

ولم يرق هذا أبدًا لرجل المخابرات (سام) ، أما (مايكل) ، فقد شعر فى جزء من أعماقه بارتياح غامر ..

ارتياح لأن الحقيقة تقترب ..

هذا لو أن ماسيرسله عميل (موسكو) سيحمل الحقيقة ..

أى جزء من الحقيقة ..

* * *

استغرق الأمر ثلاثة أسابيع كاملة ، قبل أن يصل تقرير ذلك العميل السرى الخطير ، فى قلب جهاز المخابرات السوفيتى ..

لقد تعرَّفوا بالفعل صورة الجاسوس ، باعتباره (ميخائيل بوروفيتش) ، عميلهم السابق ، الذى زرعوه فى (برلين) ، فى ذروة الحرب العالمية ، على الأراضى السوفيتية ، والذى كان للمعلومات المهمة والخطيرة ، التى جلبها من هناك ، فضل كبير فى تفادى الانكسار ، واستعادة زمام النصر ..

ولقد أكَّدوا أنه كان واحدًا من أبرع وأمهر من عملوا لحسابهم ، فى (أوروبا) كلها .. وكان له أسلوب متميِّز للغاية ..

كان جريئًا ، هادئًا ، حازمًا ، حاسمًا ، بسيطًا ، و...

ومغامرًا ..

ولأن هذا الطراز لا يروق فى المعتاد للسوفيت ، فقد أثارت انتصاراته المتتالية حفيظة وحنق وحسد بعض رجال المخابرات السوفيتية ، مما دفعهم لإعادة فتح ملفه ، وفحص أوراقه ..

وكما حدث فى كل مرة ، جاءت المفاجأة ..

إنه ليس سوفيتيًا ..

ولم يكن أبدًا كذلك ..

صحيح أنه يتحدَّث الروسية بطلاقة ، بلهجة أهل (كييف) ، إلا أنه لا ولم ينتم إليهم يومًا ..

الاسم الذى انتحله ، كان اسم رجل دين قديم ، من أيام القياصرة ..

رجل دين مات فى هدوء ، قبل سنوات ثلاث من اندلاع الحرب العالمية الثانية ..

وعندما كشف السوفيت هذا ، وعلى الرغم من كل ما قدَّمه لهم من معلومات ، قرَّروا إلقاء القبض عليه فور عودته ، واستجوابه بشأن ما حدث ..

وغنى عن الذكر أن نقول : إنه لم يعد إليهم .. أبدًا ..

وعلى مقعد أمام نافذة حجرة مكتبه ، جلس (مايكل) يقرأ ذلك التقرير السرى ، الذى أرسله العميل السوفيتى ، ووجهه يحمل ابتسامة كبيرة ..

ابتسامة لم يستطع إخفاء ما حملته من إعجاب وانبهار ..

فكرجل مخابرات محترف ، كان يدرك مدى عبقرية وبراعة ذلك الجاسوس الغامض المغامر ، الذى نجح فى خداع أشهر وأقوى أجهزة المخابرات فى العالم ودون أن يطرف له جفن ، أو يترك خلفه أدنى أثر ..

والعجيب أن ذرة فى كيان (مايكل) لم تكن تشعر بالغضب لما حدث ، وإنما كان كل شبر منه يحتشد بفضول بلا حصر ؛ لمعرفة حقيقة ذلك الغامض ..

هويته .. جنسيته .. أو اسمه ..

وعلى ضوء القمر ، الذى يغمر الحجرة ، اتسعت ابتسامته أكثر ، وهو يتخيَّل ذلك الغامض ، فى مكان ما ، يعرض خدماته على جهاز مخابرات جديد ..

ومن المؤكَّد أنهم سينبهرون به أيضًا ..

ولكنه سيظل غامضًا ، كما كان ، وبارعًا كما اعتاد ، وعبقريًّا كما ألف ، ومغامرًا كما أحب دومًا ..

وستحمل ملفات كل أجهزة المخابرات صورته بأسماء مختلفة ، وهويات متباينة ..

ولكن بوجه واحد ..

وجه جاسوس غامض ..

جدًّا .

* * *

تمت بحمد الله

روايات مصرية للجيب

حرب الجواسيس

الجاسوس الغامض



د. نبيل فاروق

صفحة

صراع العقول الذى يتفوق دوما على أعتى الأسلحة والمعدات



الثمن فى مصر ٣٠٠ ص
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

